الباب الثانى

نصوص مختارة من أدبنا العربى

رسالة
فصل ما بين العداوة والحسد

لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ(١)

أهدى الجاحظ هذه الرسالة إلى أبى الحسن عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل ثم المعتمد، واستهلها بقوله:

أَصْحَبَ الله مُدَّتَكَ السعادةَ والسلامةَ، وقَرَنَها بالعافِيَةِ والسرُورِ، وَوَصَلَها بالنعمة التى لاتَزُول، والكرامَةِ التى لاتَحُول.

هذا كتابٌ – أطالَ اللهُ بقاءَكَ – نبيلٌ بارِعٌ، فُصِلَ فيه بين الحسَدِ والعَدَاوَةِ ولم يسبِقْنى إليه أَحَدٌ ولا إلى كتاب فضْلِ الوَعْدِ الذى تقدم هذا الكتاب، ولا إلى كتاب أخلاقِ الوُزَرَاءِ الذى تقدم كتابَ فضل الوعد.

وإنما نَبُلَتْ هذه الكتب وحَسُنَتْ وبرَعَتْ، وبَذَّتْ غيرَها، لمشاكلتِها شرفَ الأشرافِ، بما فيها من الأخبارِ الأنيقةِ الغريبةِ، والآثارِ الحسنةِ اللطيفةِ، والأحاديثِ الباعِثَةِ على الأخلاقِ المحمُودَةِ، والمكارمِ الباقِيَةِ المأثُورَةِ، مع ماتضمَّنَتْهُ من سِيَرِ الملوكِ والخلفاء ووزرائهم وأتباعهم، وماجَرَتْ عليه أحوالُهم.

فأنا أسألُكَ بساطِعِ كَرَمِكَ وناصِعِ فضْلِكَ لما آمنتَ عَلَىَّ بصرف عنايتك إلى قراءتها، فإن لم يمكنك تبحُّرُها والتقصِى لجميعِها، للأشغال التى تعرُوك، فبحسبك أن تقفَ على حدودِها، وتتعرفَ معانى أبوابِها بتصفح أوائِلِها؛ فإنَّ معك قلبا به من اليقظة والذكاء، والتوقد والحفظ، مايكفى معه النظر الخاطف.

إنه لم يَخْلُ زمن من الأزمان فيما مضى من القرون الذاهبة إلا وفيه علماء مُحَقِّقون، وقد قرءوا كتب مَنْ تقدمهم، ودارسوا أهلَها، ومارسوا الموافقين لهم، وعانُوا المخالِفِين لهم، فمخَضُوا الحِكْمَةَ وعَجَمُوا عِيدَانَها، ووقفوا على حُدُودِ العلوم، فحفظوا الأمهاتِ والأصولَ، وعرفوا الشرائعَ والفروعَ، فَفَرقُوا بين الأشباهِ والنظائر، وصاقَبُوا بين الأشكالِ والأجناسِ، ووصلوا بين المتجاوِرِ والمتوازِى، واستنبطوا الغامِضَ الباطِنَ بالظاهِرِ البَيِّنِ، واستظهروا على الخَفِىِّ المُشْكِلِ بالمكشوفِ المعروفِ، وعرفوا بالفهم الثاقِبِ والعلمِ الناصِعِ، وقضت لهم المحنةُ بالذكاءِ والفطنةِ، فوضَعُوا الكتبَ فى ضُرُوبِ العُلُوم وفنونِ الآدابِ لأهل زمانِهم، والأَخْلافِ مِنْ بَعْدِهم. يَزْدَلِفُون بذلك إلى الممتَنِّ عليهم بفَضْلِ المعرفةِ التى رَكَّبَها اللهُ فيهم، وأبانهم مِنْ غيرِهم، وفضَّلَهم عليهم، ويباهون بـه

الأممَ المخالِفَة لهم، ويتبارَوْنَ بذلك فيما بينهم.

ولهم حُسَّادٌ معارضون من أهل زمانهم فى تلك العلوم والكتب، مُنْتَحِلَةٌ يدَّعُون مثل دعاويهم، قد وَسَمُوا أنفسهم بسِمَاتِ الباطل، وتسمَّوْا بأسماء العلم على المجاز من غير حقيقةٍ، ولبسُوا لِبَاس الزُّورِ متزخْرِفِين متشبِّعين بما لا محصول له: يحتذُون أمثلة المحقِّين فى زِيِّهم وهَدْيِهم، ويقتفون آثارَهم فى ألفاظِهم وألحاظِهم، وحركاتِهم وإشاراتِهم، لينسبوا إليهم ويَحُلُّوا محلهم، فاستمالوا بهذه الحيلة قُلُوبَ ضعفاءِ العامةِ وجهلاء الملوك، واتخذهم المعادون للعلماء المُحقِّين عُدَّةً يستظهرون بهم عند العامة. وحمل المدعيةَ للعلمِ المزوَّرِ الحسدُ على بَهْتِ العلماء المحقِّين.. وأمَّلُوا أنْ ينالوا بذلك بشَاشَةَ العامةِ، وتستوى لهم الرياسَةُ على طَغَامِ الناس ورِعَاعِهم... فاشْكَل على العامة أمرُ العالِمِ الحقيقى والمدَّعى المُجارى المُنتَحِل للزور والباطل...

ولستُ آمَنُ -جَعَلَنِى اللهُ فِدَاكَ- أن تكونَ هذه الكتب التى أُعْنَى بتأليفها، وأتأنَّقُ فى تَرْصِيفِها، يتولى عرضَها عليكَ مَنْ قد لَبِس لِبَاسَ الزُّورِ فى انْتِحَال وَضْع مِثْلِهَا، وَنَسَبَ نَفْسِهِ إلى القُوَّةِ على نَظَائِرِها....

بل لا آمَنُ أنْ يتجاوَزَ ذلك إلى الطعنِ عليها بقولٍ أو إشارَةٍ، فيُوهِمُ فَسَادَ مَعَانِيهَا ويُومِى إلى سُقُوطِ أَلْفَاظِهَا، من غيرِ أنْ يُظْهِرَ المُعَادَاةِ لها، والحَسَدِ لمؤلِّفِهَا، والحَمْل عليها بقولٍ يكون دليلا على مايُضْمِرُ... وليس يقابِلُه أَحَدٌ بِرَدٍّ، ولايُوازِيه بِنِزَاعٍ، فيزْدَادُ نشاطا عن مايرى مِنْ خَلاَءِ الأمْرِ. وقد قيل: (كُلُّ مُجْرٍ فى الخَلاَءِ يُسَرُّ) وكل مُنَاظِرٍ مُتَفَرِّدٍ بالنظرِ مَسْرُورٌ، وإنما يُعْرَفُ جَرْىُ الخَيْلِ عند المُسَابَقَةِ، وَبَرَاعَةُ النَّظَرِ عِنْدَ المُخَاصَمَةِ.

..... وروى الجاحظ عن بِشْرٍ المُرِيسِىِّ أَنَّ كِتَابًا له عُرِضَ فى مجلس الخليفة المأمون ولم يكن حاضِرًا فانبرى محمد بن العباس الطُوسِىُّ للطعنِ عليه، والمعارَضَةِ للحُجَج التى فيه وأَسْهَبَ فى ذلك وخطب .. واستُؤْذِنَ لِبِشْرٍ المُرِيسِىِّ صاحبِ الكتاب، ودَافَعَ عن كِتَابِه واسْتَحْذَى مُحمد بن العَبَّاسِ الطُّوسِىَّ، فعَقَّبَ الخليفةُ المأمونُ بقوله: إنَّ الكُتُبَ عُقُولُ قَوْمٍ ورَاءَهَا عِنْدَهم حُجَجٌ لها، فما يَنْبَغِى أن يُقْضَى على كِتَابٍ إلا إذا كانَ لَهُ دَافِعٌ عنه،

وخَصْمٌ يبيِّنُ عما فيه؛ فإن أبناءَ النِّعَمِ وأولادَ الأُسُرِ مَحْسُودُون.

وَرَوَى آثارا قِيلَتْ في الحَسَدِ، منها قولُ عمر بن الخطاب رضى الله عنه: "ما أَحْدَثَ اللهُ بعَبْدٍ نِعْمَةً إلا وَجَدْتَ له عليها حَاسِدًا. وَلَوْ أنَّ امْرأ كان أقْوَمَ مِنَ القِدْحِ (السهم) لَوَجَدْتَ لَهُ غَامِزًا".

ومنها قول عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه: "الحاسِدُ لايَمْلِكُ إلا عِنَانَ حَسَدِهِ؛ لأنه مَغْلُوبٌ على نَفْسِهِ."

ومنها قول المهلَّب بن أبى صُفْرة: "الحَسَدُ شِهَابٌ لايُبَالِى مَنْ أَصَابَ، ولا على من وَقَعَ" وقال الجاحظ مقايسا بين العداوة والحسد بعقب هذه الآراء فى الحسد:

والعداوة لها عَقْلٌ تَسُوسُ به نَفْسَهَا فَيَنْجُمُ قَرْنُها، وتُبْدِى صَفْحَتَهَا فى أوْقَاتِ الهَبْرِ، وإلا فإنها كامِنَةٌ تنتَهِزُ أزْمِنَةَ الفُرَصِ. والحَسَدُ مَسْلُوبُ المعقولِ بإزاء الضَّمِيرِ فى كلِّ حِينٍ وزَمَانٍ ووَقْتٍ.

ومِنْ لُؤْمِ الحَسَدِ أنَّهُ مُوَكَّلٌ بالأدنى فالأدنى، والأَخَصِّ فالأَخَصِّ. والعداوةُ وإنْ كانَتْ تُقَبِّحُ الحَسَنَ فهى دُونَ الحَسَدِ؛ لأن العَدُوَّ المُبَايِنَ قد يَحُولُ وَلِيًّا مُنَافِقًا، كما يَحُولُ المَوْلَى المُنَافِقُ عَدُوًّا مُبَايِنًا.

والحَاسِدُ لايَزُولُ عن طَرِيقَتِه إلا بِزَوَالِ المَحْسُودِ عليه عنده. والعَدَاوَةُ تَحْدُثُ لِعِلَّةٍ، فإذا زالت العِلَّةُ زالَتْ مَعَهَا. والحَسَدُ تَرْكِيبٌ لعلة يحسد عليه فهو لايزول إلا بزواله. ومن هذا قال معاوية رحمه الله: "يُمْكِنُنِى أنْ أُرْضِىَ النَّاسَ كلَّهُم إلا حاسِدَ نِعْمَةٍ. فإنه لايُرْضِيه مِنْهَا إلا زَوَالُهَا."

وأعداء النِّعْمَةِ إذا شُورِكُوا فيها وَنَالُوا منها تَزَحْزَحُوا عن عَدَاوَتِها، وكانوا مِنْ أهْلِهَا المُحَامِينَ عنها، والدَّافِعِينَ عن حِمَاهَا.

ومن هذا قال المُغِيرَةُ بنُ شُعْبَةَ: "النِّعْمَةُ التى يُعَاشُ فيها نِعْمَةٌ مَحْرُوسَةٌ ليس عليها ثَائِرٌ يَغْتَالُها، ولا ذُو حَسَدٍ يَحْتَالُ فى غِيَرِها.

وحُسَّادُ النعمة إنْ أُعْطُوا منها وَتَبَحْبَحُوا فيها، ازْدَادُوا عليها غَيْظًا وبِهَا إغْرَاءً.

والعَدَاوَةُ تَخْلُقُ وتَمَلُّ، والحَسَدُ غَضٌّ جَدِيدٌ، حُرِمَ أوْ أُعْطِيَ، لايَبِيدُ. فَكُلُّ حَاسِدٍ عَدُوٌّ، ولَيْسَ كُلُّ عَدُوٍّ بِحَاسِدٍ، وإنما حَمَلَ اليهودَ على الكُفْرِ بمحمدٍ صلى الله عليه وسلم -وَهُمْ يعرِفُونَه كما يَعْرِفُونَ أبناءَهُم أنه نَبِيٌّ صَادِقٌ، ورَسُولٌ مُحِقٌّ، يقرءُونَ نَعْتَهُ فى تَوْرَاتِهِم، ويتدارَسُونَه فى بيت مدراسهم-الحَسَدُ، وَحَجَزَ بين عُلَمَائِهِم والإيمانُ به، ثم نَتَجَ لهم الحَسَدُ عَدَاوَتَهُ.

ومن الدليلِ على أنَّ الحَسَدَ آلَمُ وآذَى وأَوْجَعُ وأَوْضَعُ مِنَ العَدَاوَةِ، أنه مُعْرًى بِفِعْلِ اللهِ عزَّ وجلَّ، والعَدَاوَةُ عارِيَةٌ مِنْ ذلك لاتتصل إذا اتصلت إلا بأفعال العِبَادِ. ولا يُعَادَى على فِعْلِ اللهِ تباركَتْ أسماؤُهُ. ألا ترى أنك لم تَسْمَعْ أَحَدًا عادى أحدا لأنه حَسَنُ الصورة جَمِيلُ المَحَاسِنِ، فَصِيحُ اللِّسَانِ حَسَنُ البَيَانِ. وقد رأيتَ حاسِدَ هذه الطبقة وسمعت به، وهُمْ كثيرٌ تعرِفُهُم بالخبر والمشاهدة.

والحَسَدُ أَخُو الكَذِبِ، يجريان فى مِضْمَارٍ واحد، فهما أَلِيفَانِ لايَفْتَرِقَانِ، وضجيعان لايتباينان. والعداوَةُ تخلو من الكَذِبِ؛ ألا ترى أن أولياء الله قد عَادُوا أعداءَ الله إذ لم يستحلوا أنْ يكذِبُوا عليهم. والحَسَدُ لايَبْرَأُ مِنَ البُهْتِ، وكيف يبرأ منه وهو عَمُودُهُ الذى عليه يعتمدُ وأساسُهُ الذى به البناء يعقد.

والحسد نارٌ وقودُهُ الروح لاتَبُوخُ أبدًا أو يَفْنَى الوَقُودُ. والحَسَدُ لايَلْقَى إلا بِلَى المحسُودِ أو الحَاسِدِ. والعداوَةُ جَمْرٌ يُوقِدُهُ الغَضَبُ، ويُطْفِئُه الرِّضَا، فَهُو مُؤَمَّلُ الرُّجُوعِ مَرْجُوُّ الإِنَابَةِ. والحَسَدُ جَوْهَرٌ والعَدَاوَةُ اكتِسَابٌ.

والحَسَدُ وإنْ كانَ مُوَكَّلاً بالأَدْنَى فالأَدْنَى فإنه لم يَعْرَ مِنْهُ الأَبْعَدُ فالأَبْعَدُ. وهو فى أَهْلِ العِلْمِ أَكْثَرُ، وعليهم أَغْلَبُ، وَبِهِمْ أَشَدُّ لُصُوقًا مِنْهُ بِغَيْرِهِم مِنَ المُلُوكِ والسُّوقَةِ، وكَأَنَّ مَنْ نالَهُ التقصيرُ فى صِنَاعَةِ العِلْمِ عن غايَتِهِ القُصْوَى قد استَشْعَرَ حَسَدَ كُلِّ مايَرِدُ عليه من طَرِيفِ أَدَبٍ، أو أنيقِ كَلَامٍ، أو بَدِيعِ مَعْنًى. بَلْ قَدْ وَقَعَ بِخَلَدِهِ لِضَعْفِهِ، وَقَرَّ فى رَوْعِهِ لِخَسَاسَتِهِ أنه لايَنَالُ أَحَدٌ مِنْهُم رِيَاسَةً فى صِنَاعَةٍ، ولايتهيأُ لَهُ بِيَاسَةُ أَهْلِهَا، إلا بالطَّعْنِ على نَوَاصِيهِم، والعَيْبِ لِخِلَّتِهِم، والتَّحَيُّفِ لِحُقُوقِهِم....

وَحَسَدُ الجَاهِلِ أَهْوَنُ شوكةً وأَذَلُّ مِحْنَةً مِنْ حَسَدِ العَـــارِفِ الفَطِنِ؛ لأنَّ الحاسِدَ

الجاهِلَ يَبتَدِرُ إلى الطَّعْنِ على الكِتَابِ فى أَوَّلِ وَهْلَةٍ يُقْرَأُ عليْهِ، مِنْ قَبْلِ استِتْمَامِ قِرَاءَتِهِ وَرَقَةً واحِدَةً، ثُمَّ لايَرْضَى بأَيْسَرِ الطَّعْنِ وأَخَفِّهِ حتى يَبْلُغَ منه إلى أَشَدِّهِ وأَغْلَظِهِ، مِنْ قبلِ أنْ يَقِفَ على فُصُولِهِ وحُدُودِهِ..

والحاسِدُ العَارِفُ الذى فيه تَقِيَّةٌ ومعه مُسْكَةٌ، وبِهِ طَعْمٌ (عقل)؛ إذا أَرَادَ أنْ يَغْتَالَ الكِتَابَ ويَحْتَالَ فى إِسْقَاطِهِ، تَصَفَّحَ أَوْرَاقَه وَوَقَفَ على حُدُودِهِ ومَفَاصِلِهِ، ورَدَّدَ فيه بَصَرَهُ ورَاجَعَ فِكرَهُ، وأَظْهَرَ عند السَّيِّدِ الذى هو بحضرتِهِ وجُلَسَائِهِ، مِنَ التثبُّتِ والتَّأَنِّى حَبَالَةً يقتَنِصُ بها قُلُوبَهُم، وسَبَبًا يسترْعِى به أَلْبَابَهُم، وسُلَّمًا يرتَقِى به إلى مُرَادِهِ مِنْهُم، وبِسَاطًا يفرش عليه مصارِعَ الخُدَعِ، فَيُوهِمُ به القَصْدَ إلى الحقِّ والاجتباءَ له. فربما استرعَى بهذه المخاتِلِ والخُدَعِ قَلْبَ السَّيِّدِ الحازِمِ.

فمِنْ أعظَمِ البَلَايَا وأكبَرِ المصائبِ على مُؤَلِّفِى الكُتُبِ إذا كان العارِضُ لها على السيد الذى منه تُرْجَى أثمانُها، وعنده تَنفُقُ بَضائِعُ أهْلِهَا، على هذه الصفة التى وصفتُهَا من الحَسَدِ والحِذْقِ بأسبابِهِ، والمعرِفَةِ بالوُجُوهِ التى تَثْلَمُ المحسودَ وتهدُّهُ وتَضَعُ منه ومن كُتُبِهِ..

ومما يَدُلُّكَ على أَنَّ الحَسَدَ أَخَسُّ وأَغْبَنُ مِنَ العَدَاوَةِ، أَنَّ المَلَلَ كُلَّهَا ذَمَّتْهُ وَعَابَتْهُ. ولا نَعْلَمُ أنَّ شَاذًّا مِنَ الشَّوَاذِّ، وشَارِدًا من الشُّرَّادِ، فَضْلًا عَنْ جِيلٍ مِنَ الأَجْيَالِ أَمَرَ بالحَسَدِ. ثم عَظُمَ شأنُ العَدَاوَةِ عِنْدَهُم، وجَلَّ قَدْرُهَا لَدَيْهِم، حتى اخْتَلَفُوا فى وُجُوهِ العَمَلِ فِيهَا؛ فمِنْهُم مَنْ أَمَرَ بِهَا على الحَزْمِ والعَقْلِ.. وَمِنْهُم من رَأَى المُعَادَاةَ بَعْدَ الفِرَارِ منها والإِعْذَارِ فِيهَا، فإن هى أَبَتْ إلا المقارَنَةَ قارَنُوهَا بِمِثْلِهَا... ومنهم مَنْ أَمَرَ بقَبُولِ الإِنْصَافِ وَتَرْكِ المُحَاسَبَةِ.. ومنهم مَنْ أَمَرَ بمعونَةِ الدَّهْرِ على العَدُوِّ إذَا حَمَلَ عليه.... ومنهم مَنْ كان يَرَى جَبْرَ كَسْرِ العَدُوِّ وإِقَالَةَ عَثْرَتِهِ، ونُصْرَتَهُ عِنْدَ وُثُوبِ الدَّهْرِ عَلَيْهِ... ومنهم مَنْ رأى الإِفْضَالَ على عَدُوِّه وتَرْكَ مجازَاتِهِ...

ولم نَرَ الحَسَدَ أَمَرَ به أَحَدٌ مِنَ العَرَبِ والعَجَمِ فى حالٍ مِنَ الأَحْوَالِ ولا نَدَبَ إليه ونَبَّهَ عليه وقد نَبَّهَ على العَدَاوَةِ وفَضَّلَ بين أحوَالِهَا بما قَدْ بَيَّنَّاهُ، فَظَهَرَ فَضْلُهَا على الحَسَدِ بذلك.

وكُنْتُ امرأً قَلِيلَ الحُسَّادِ حتى اعْتَصَمْتُ بِعُرْوَتِكَ، واستَمْسَكْتُ بِحَبْلِكَ، واسْتَدْرَيْتُ فى ظِلِّكَ، فَتَرَاكَمَ علىَّ الحُسَّادُ وازْدَحَمُوا، ورَمَوْنِى بِسِهَامِهِم مِنْ كُلِّ أَوْبٍ وَأُفُقٍ، وتَتَابَعُوا علىَّ تَتَابُعَ الدَّبْرِ على مُشْتَارِ النَّحْلِ، وَلَئِنْ كَثُرُوا لَقَدْ كَثُرَ بِهُبُوبِ رِيحِكَ إِخْوَانِى، وَبِنَضْرَةِ أَيَّامِكَ وزَهْرَةِ دَوْلَتِكَ خِلَّانِى.

دراسة النص:

أولا : الكاتب والموضوع:

أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (١٥٩-٢٥٥هـ) إفريقى الأصل، عربى الولاء، أول كاتب فى العربية اتخذ الكتابة للجمهور مهنة يكتسب منها رزقه وتنقله مهنته من مستوى من يبيع السمك مطهيا والخبز لطائفة حَمَّالِى السُّفُنِ على شاطئ النهر بالبصرة إلى مستوى الكاتِبِ المَرْمُوقِ الذى تَحْمِلُ القَوَافِلُ كُتُبَهُ إلى كل مكانٍ تذهبُ إليه، والمقرَّبُ من الوزراء والمتصل بالخلفاء بدءًا بالمأمون وانتهاء بالمتوكل. والذى تجرى عليه الأرزاق من بيت المال. واستقر بعد بغداد وسامراء فى موطنه البصرة وعنده ضَيْعَةٌ وسَفِينَةٌ خاصة ومَلَّاحُها وبَيْتٌ كبير يقوم على خدمته فيه عَبْدٌ وجارِيَةٌ ويكتب له وَرَّاقٌ خَاصٌّ.

اتصل بالخليفة المأمون فى مرو سنة ١٩٨هجرية تقريبا قبل دخوله بغداد والقضاء على أخيه الأمين، فقد أحدثت الفتنة بين وَلَدَىْ الرشيد؛الأمين والمأمون تدميرا وخرابا خَصَّ بغداد منه الأثر الأكبر وعم أماكن كثيرة. لكن الأثر الأفدح لهذه الفتنة تردُّدُ فكرة أنه ليس لقيام الدولة المركزية مُبَرِّرٌ؛ فيستطيع كل مَنْ يُوَفِّرُ الأَمْنَ فى إقليم أن يكون حاكمه.....

وقد أرسل المأمون تعليماته إلى حكام الأقاليم أن يعلنوا للناس أنَّ مَنْ استطاع أنْ يكتُبَ فى وُجُوبِ الإمامة فليكتب. ولتحمل كتبه إلى الخليفة. وكانت هذه هى فرصة الجاحظ لكى يخرج من البصرة وأن يكون لسان الشرعية دينا ودولة الذى يخاطب الجماهير ويثبت لهم وجوب الإمامة شرعا واجتماعا....

كتب الجاحظ هذه الرسالة فى الفترة بين سنتى ٢٣٣، ٢٣٦ هـ وهى فترة ولاية الوزير عبيد الله بن يحيى بن خاقان الوزارة أى بعد أن عاش كاتبا مرموقا تجرى عليه أرزاق الدولة مايقرب من خمسة وثلاثين عاما. فهو صاحب نعمة، وكل صاحب نعمة محسود. هذا هو الباعث الذاتى للكتابة فى هذا الموضوع.

أما الباعث الموضوعى المِلحُّ على الكتابة فهو ماذكرناه من الفتنة بين ولدى الرشيد؛ الأمين والمأمون وآثاره المدمرة. يضاف إليه ماكان يجرى فى قصر الخليفة المتوكل من دسائس ومؤامرات وإفشاء أدق أخبار القصر. ومنها وقيعة قادة الأتراك فى القصر بين المتوكل وابنه المنتصر، ولم يتم لهم هذا الأمر إلا باستشمار الأحقاد أى بالحَسَدِ.

فالفترة من سنة ٢٣٣هـ بداية ولاية الوزير عبيد الله بن يحيى بن خاقان إلى سنة ٢٥٥هـ -وفاة الجاحظ- رأت أربعة خلفاء؛ هم المتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز. ولم يكن انتقال الخلافة خلالها انتقالا طبيعيا.

فقد ولى المنتصر الخلافة بعد أن انتزعها قَسْرًا بقتل أبيه بمساعدة حراسه الأتراك، وقتل معه وزيره الفتح بن خاقان سنة ٢٤٧هـ.

ولم يَلِهَا المنتصر إلا ستة أشهر عاشها مفزعا مذعورا يترصَّدُهُ الموتُ فى هذه الأوهام والأشباح التى جعلت تَزُرُّهُ فى نومه ويقظته حتى قضت عليه ولما يستتم الخامسة والعشرين من عمره.

وولى بعده المستعين ولم يلبث أن خُلِعَ ثم قُتِلَ.

وهكذا كان الأمر فى المعتز أُكْرِهَ على خَلْعِ نفسِهِ ثم عُوجِلَ بالقتل بعد ذلك". وعبارة الدكتور الحاجرى هذه تشير إلى الخبيث أو الخبثاء الذين حرَّكُوا الأحداث لكى يكون ناتجها هذه الحقائق المؤلمة المفزعة ومايزالون يحركونها إلى اليوم....

أضف إلى هذا أن بعض العاملين بالدولة حققوا لأنفسهم بطرق غير مشروعة ثَرَوَاتٍ كبيرة فحاكمهم الوزير ابن الزيات. فالتف المستغلون وراء صاحب نفوذ آخر يحميهم هو أحمد بن أبى دُوَاد الذى امتد نفوذه السياسى منذ عهد الخليفة المأمون إلى عهد الخليفة المتوكل. ولما كان الجاحظ صديقا لابن الزيات مدافعا عن سياسة النزاهة فى

الحكم فقد أصابه أذى وإن كان أهون مما أصاب ابن الزيات. وسيّان إن كان الذى أصابه من أذى أحمد بن أبى دواد صادرًا عن عَدَاوَةٍ، أم عن حَسَدٍ، أم عن مُخَاشَنَةٍ فقد انتصر للحق وعُذِّبَ وأُهِينَ لموقفِهِ.

لانعجب إذن أن يكتب الجاحظ عن الحسد ثلاث مرات؛ أولها رسالته الحاسد والمحسود، وثانيها مقايسته بين العداوة والحسد، وثالثها احتجاج كلامى عن الحسد عرضه فى كتابه الحيوان (حـ٢، ص١٣٠-١٤٢)،نقتطف من رسالته فى الحاسد والمحسود فقرات بنى عليها كلامه فى نصنا الذى ندرسه، قال[٢]:

• الحَسَدُ أَوَّلُ خَطِيئَةٍ ظهرتْ فى السمواتِ وأَوَّلُ مَعْصِيَةٍ حدثت فى الأرض. خُصَّ به أفضَلُ الملائكة فعصى ربه.. ومضى اللعين الحاسِدُ فى حَسَدِهِ فَشَقِيَ وغَوَى. وأما فى الأرض فابنا آدم حَسَدَ أَحَدُهُما أَخَاهُ فَعَصَى رَبَّهُ.. وبالحَسَدِ طَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فقتله، فقد حمله الحَسَدُ إلى غَايَةِ الفَسُوقِ وبلغَ أَقْصَى حُدُودَ العُقُوقِ فَأَنْسَاهُ مِنْ رَحْمَتِهِ جميعَ الحُقُوقِ.

• الحسدُ أغلبُ على صاحِبِه مِنَ السيِّدِ على عَبْدِهِ، ومِنَ السُّلْطَانِ على رَعِيَّتِهِ، وَمِنَ الرَّجُلِ على زَوْجَتِهِ، وَمِنَ الآسِرِ على الأَسِيرِ.

• الغِلُّ نَتِيجُ الحَسَدِ وَرَضِيعُهُ وَغُصْنٌ مِنْ أَغْصَانِهِ وعَوْنٌ من أَعْوَانِهِ وَشُعْبَةٌ من شُعَبِهِ وفِعْلٌ مِنْ أَفْعَالِهِ.

• وشرح مايُحْدِثُهُ الحسدُ من تدْمِيرٍ فى بناء الشخصية فقال: "وكان عبد الله بن أُبَيٍّ قبل نِفَاقِهِ نَسِيجَ وَحْدِهِ لجَوْدَةِ رَأْيِهِ وَنُبْلِ شِيَمَتِهِ وانْقِيَادِ العَشِيرَةِ له بالسيادةِ وإذْعَانِهم له بالرِّيَاسَةِ، وما استوْجَبَ ذلك إلا بَعْدَمَا استَجْمَعَ لَهُم لُبَّهُ، وتبين لهم عَقْلُهُ، وفُقِدَ بينَهُم جَهْلُهُ.

فلما بعثَ اللهُ نبيَّهُ صلى الله عليه وسلم وقَدِمَ المدينةَ، ورأى غيرَهُ تشمَّرَ بأنْفِهِ فَهَدَمَ إسلامَهُ لحَسَدِهِ وأَظْهَرَ نِفَاقَهُ، وماصَارَ مُنَافِقًا حتى صارَ حَسُودًا، ولاصَارَ حَسُودًا حتى صارَ حَقُودًا، فَحَمُقَ بعد اللُّبِّ، وجَهِلَ بَعْدَ العَقْلِ، وتَبَوَّأَ النارَ بعد الجنة. ولقد

خطب النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة فَشَكَاهُ إلى الأنْصَارِ فقالوا: (يارسول الله لاتَلُمْهُ فإنا كنا عقَدْنَا له الخَزَرَ قبل قُدُومِكَ لِنُتَوِّجَهُ) ولو سَلِمَ للمَخْذُولِ قَلْبُه من الحَسَدِ لكان من الإسْلامِ بمكَانٍ ومن السؤدُدِ في ارتفاع فَوَضَعَهُ اللهُ لِحَسَدِهِ وأظْهَرَ نِفَاقَه.

• ثم وجه خطابه لقارئه ناصحا:

"إذا أحسَسْتَ مِنْ صَدِيقِكَ الحَسَدَ فأقْلِلْ من مُخالطَتِه، فإنه أعْوَنُ الأشياءِ على مُسَالَمَتِهِ. وحَصِّنْ سِرَّكَ منه تَأْمَنْ شرَّهُ، وبَوَانِقَ ضَرَرِهِ، وإيَّاكَ والرَّغْبَةَ في مُشَاوَرَتِه، ولايَغُرَّنَّكَ خُدَعُ مَلَقِه، وبَيَانُ زَلَقِه، فإن ذلك من حَبَائِلِ نِفَاقِه."

ألا ترى أن عبارة الجاحظ تشير -دون تصريح- إلى الفرق بين الصحة النفسية والمرض النفسي.

صور الجاحظ الحسد في هذه الرسالة من حيث هو عدوان يمارسه فرد من أفراد المجتمع ضد فرد آخر، فأثبت أن الحسد هو الجاهلية لاشتماله على مفرداتها؛ أولها الظلمُ قرينُ الشِّرْكِ لقوله تعالى (إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) لقمان١٣، وهو شرٌّ خالِصٌ لأن صاحبه يعصي الرحمن ويطيع الشيطان ويقول البهتان، وهو كافر بأنعم الله منافق حقود عاق شرير تبلغ القسوة عنده أقصاها، فتَسَوَّغُ له نفسُه قتل أخيه أو القاءه في الجب. فهو ليس من الإيمان في شيء، وهو يُدمِّرُ الشخصيةَ ويُفقِدُها القدرةَ على الاستقلالِ وعلى التعامُلِ مع المجتمع فالناسُ لا تأمنُ الحاسِدَ ولاتحبه. والحل اجتنابه والتعامل معه في أضيق الحدود لأنه عَدُوٌّ نفسِهِ. فهو بعَرْضِ هذه الحقائق وتأكيدِها بالشواهد صنع اتجاها لدى الرأى العام ضد الحسد.

أما في رسالة (فصل مابين العداوة والحسد) فالجاحظ يتكلم عن الحسد باعتباره ظاهرة اجتماعية عامة لها أسبابٌ سياسية وعلمية وأدبية، ولاتقتصر على أفراد من طبقة معينة. وإنما هو ظاهرة عمت كل الطبقات وشملت كل المجالات.

إن عبارة الجاحظ: (وَمِنَ لُؤْمِ الحَسَدِ أنه مُوَكَّلٌ بالأدْنَى فالأدْنَى، والأخَصِّ فالأخص) تشير إلى أمور مؤسفة يصعب حصرها لعل أمسها بهذه الرسالة موضوعا وأقربها زمانا مارواه الطبري في تاريخه في أول ذكره حوادث ٢٣٣هـ (٣) أن الواثقَ

كان استَوْزَرَ محمَّدَ بن عبدَ الملكِ الزياتِ وفَوَّضَ إليه الأمور. وكان الواثق غَضِبَ على أخيه جعفر المتوكل لبعض الأمور... فصار جعفر إلى محمد بن عبد الملك يسأله أن يُكَلِّمَ له أخاهُ الواثقَ ليرضَى عنه؛ فلما دخل عليه مَكَثَ واقِفًا بين يديه مَلِيًّا لا يُكَلِّمُه، ثم أشار إليه أنْ يَقْعُدَ فقَعَدَ. فلما فرغ مِنْ نَظَرِهِ فى الكُتُبِ، التَفَتَ إليه كالمُتَهَدِّدِ له فقال: ماجاءَ بك؟ قال: جِئتُ لتَسْأَلَ أميرَ المؤمنينَ الرِّضَا عَنِّى، فقال لِمَنْ حَوْلَهُ: انظروا إلى هذا، يُغْضِبُ أَخَاهُ، ويسألُنى أنْ أسترضِيَهُ له! اذْهَبْ فإنك إذا صَلُحْتَ رَضِىَ عنك....

وكانت أولُ أعمالِ المتوكِّلِ أنْ أَمَرَ إيتَاخَ بأَخْذِ محمد بن عبد الملك الزيات وعَذَابِه وكان أحمد بن أبى دُوَاد آمرا بتعذيبه قبل قتله. هذه هى دائرة الحقد التى لايغذيها إلا الحسد والتى لم يَبْرَأ منها خليفةٌ أو وَزِيرٌ أو رئيسُ المعتزلة المفترض فيه أنه تَخَلَّقَ بِخُلُقِ القرآن.

فالجاحظ تناول موضوعه بمزيج نادر من الذاتية والموضوعية والرسالة من الأدب الخالص فلم يكتبها بتوجيه من الدولة لشرح وجهة نظر الشرعية، وإنما كتبها بدَافِعٍ ذاتِيٍّ فيواجه أعداءَ النجاحِ، وبمُبَادَرَةٍ عِلاَجِيَّةٍ لدَاءٍ اجتِمَاعِيٍّ.

ثانيا : اللغة (٤): (مَخَضُوا الحِكْمَةَ) مَخَضَ اللَّبَنَ يمخضه: أخذ زُبْدَهُ – المحيط.

استعار المخض للبحث الأدبى والجامع بين الحقيقة والمجاز الحصول على النتيجة بعد بذل الجهد. (عَجَمُوا عِيدَانَها) يقال عَجَمْتُ العُودَ إذا عضَضْتُهُ لتَعْرِف صلابَتَه من رَخَاوَتِه. صورة بيانية كالسابقة.

صاقَبُوا بين الأَشْكَال والأَجْنَاسِ. صاقَبَهُم مُصَاقَبَةً وصِقَابًا: واجَهَهُم – المحيط

استظهروا على الخفى: استعانوا عليه، المُتَحِلَّةُ : المُدَّعُون.

وَسَمُوا أنفُسَهُم : الوَسْمُ أثرُ الكَيِّ.والمعنى أدانوا أنفسهم.

يُومِى: يُشِيرُ، الهَتْر: مَزْقُ العِرْضِ، والسَّتَطُ من الكلام والغَلَطُ فيه.

لم يَعْرَ مِنْهُ الأَبْعَدُ: عَرَاهُ يَعْرُوهُ: غَشِيَهُ. والمعنى لم يسلم منه الأبعد.

التحيُّف : الظُّلْمُ والغَبْنُ.

وتَتَايَعُوا علىَّ تَتَايُعَ الدَّبْرِ: التتابع: ركوب الأمر على خِلَافِ النـاس، والتهافُتُ والإسراعُ فى الشَّرِّ واللَّجَاجَةُ فيـه. والدَّبْر: جماعة النحل وهنا أداة تشبيه محذوفة. والصورة تمثيل.

عقدنا له الحَزَزَ يبدو أن خطأً وقع من الناسخ ولم يلتفت إليه المحقق والصواب: عقدنا له الحَزْحَزَة، وهى من فعل الرئيس فى الحرب عند تعبئة الصفوف فيُقَدِّمُ هذا ويُؤَخِّرُ هذا.

حَبَائِلُ زَلَقِهِ: أسباب خُدَعِه. الملق: الود واللطف وأن تعطى باللسان ماليس فى القلب.

اللغة أداة الأديب لخلق عمل فنى يفيض بالحيوية، والعمل الفنى تتحدد جمالياته من خلال علاقات مركبة بين الأديب والموضوع والجمهور والسياق الذى صنع فيه العمل الفنى، فالبلاغة موافقة الكلام لمقتضى الحال. وصانع هذا العمل الفنى أديب صاحب مدرسة، وقد مر بك حديثه عن مواصفاتِ الفَصَاحة، ورأيه فى ظاهرة الترادف، كما اطلعت على حديثه عن قوانين التجوز، فهو باختصار فنان قدير يتقن الصنعة ويضع لغيره مواصفات الجودة فى العمل الأدبى. والموضوع أَخْلاقِيٌّ والسياقُ فسادُ الأخلاق الذى انتشر بين العلماءِ والأدباءِ والوزراءِ ورَوَّعَ الناس فى حياتهم وفى أَرْزَاقِهِم وقد صدر الكاتب عن تجربة شخصية رَوَّعَتْهُ فى حياتِه ورِزْقِه.

كانت مواصفات البلاغة التى عرضناها عليك تتحدث عن البيان بمعنى الوضوح، لكن من البيان ماقام على الإشارة والغموض لدواعٍ كَثِيرَةٍ، فالكناية قد تكون أبلغ من التصريح فى مواطن. انظر إلى عبارته (ومِنْ لُؤْمِ الحَسَدِ أنه مُوَكَّلٌ بالأدنى فالأدنى، والأخص فالأخص) وتذكر مافعله الواثق فى أخيه المتوكل، ومافعله بعد ذلك المنتصر بأبيه المتوكل....

انظر فى تكرار توكيد الجاحظ فى خاتمة الرسالة على صدق ولائه للوزير. وابحث له عن سبب ولن تجد لهذا التكرار من تفسير إلا أنه إشارة إلى أن الحَسَدَ فى حقيقته إفسَادُ ولاء المؤمنين فهو ولاء المنافقين.

فالجاحظ فى هذه الرسالة مصور مترسل لايعنى بأناقة أسلوبه، فالجو النفسى هو الخوفُ على الحياةِ وعلى الرِّزْقِ فهو يعمَدُ إلى تجسِيدِ المعـانى الأخلاقِيَّةِ وتشـخيصِهَا إلى حدِّ رَسْمِ معالِمِ شخصيةِ الحاسِدِ الجاهِلِ، والحاسد العالم فتسـتطيع أن تشـير إليـه وتحـدده بهذه الصفات التى دلك عليها الجاحظ. والتصويرُ أبلـغُ الجماليـات فـى هـذا الموضـوع الأخلاقى، لأن الأخلاقَ لاتعيشُ إلا بالانسـانِ، ولانَعْرِفُهـا إلا مِـنْ أَفْعَالِـهِ حـين تتفِقُ أو تختلِفُ مع أقوالِهِ وتتسقُ أو تتعارَضُ مع المُثُلِ العُلَا الأخلاقية التى نصت عليهـا الشـريعة ووضحتها السنة وتعاملت بها الجماعة.

لقد رجعنا إلى القاموس المحيط ولسان العرب لنوقفك على حقيقة الألفاظ التى استعملها الجاحظ وهـذا العمـل مدخـل ضـرورى للوقـوف علـى أسـلوب الجـاحظ فـى التجوز.

قلنا إن التصوير هو الفن الأنسب لهذه المقالة، والشواهد الدالـة علـى مـانقول، هى:

(الحاسِدُ لايعدِلُكَ إلا عِنَان حَسَدِه) شبه الحسد بالفرس الجموح وحذف المشبه به، وأتى بشىء من لوازمه. استعارة مكنية.

- (الحَسَدُ شِهَابٌ لايُبَالِى مَنْ أَصَابَ ولا على مَنْ وَقَع) تشبيه تمثيل.
- (الحَسَدُ أَخُو الكَذِبِ، يجرِيَانِ فى مِضْمَارٍ واحِدٍ، فهما أليفان لايفترقـان، وضجيعـان لايتباينان) تمثيل تم ترشيحه (تقويته وتوكيده) لتجسيد المعانى.
- الحَسَدُ نارٌ وقودُهُ الروح... تمثيل كالسابق.
- العداوة جمر.

ثالثا : مضمون النص

أجمعت مصادر التاريخ والأدب علـى فسـاد الحيـاة السياسـية والاجتماعيـة فـى هذه الفترة من عهد الخليفة المتوكل، فقد ضاق بالقصر فكان كثير التنقـل دائـم التفكـير فى نقل عاصمة الخلافة من بغداد إلى دمشق، ولكنه شغل عن ذلك وعلم أن ابنه سيقتله

مستعينا بالقادة الأتراك فساءت العلاقة بين الخليفة وابنه ولي عهده. أراد المتوكل أن يقضي على الفساد فأوكل إلى ابن الزيات هذه العملية ولكن أصحاب المصالح التفوا حول أحمد بن أبي دواد فبطش بابن الزيات.

وأصيب أحمد بن أبي دواد بالفالج وقوى المعارضون للمعتزلة من أهل السنة والتفوا حول رمزهم أكثم بن صيفي واتضحت حقيقة أحمد بن أبي دواد ومحنة خلق القرآن التي فرض بها الإرهاب بلامُبَرِّرٍ بين الآمنين -الحقيقة إنه عذب الناس وأضاف إلى الاسلام ماليس منه لكي يحقق ثروةً له ولأسرته فحُبِسَ هو وابنه وصُفِّيَتْ أموالُهم وثبت بهذا الواقع أن المعتزلةَ بقولهم بخلق القرآن طائفةٌ من الخوارج؟!!

تبين للخليفة المتوكل أن أحمد بن أبي دُوَاد كان مُحَرِّكاً مِنْ قِبَل بختيشوع بن جبريل طبيب القصر، وأن مؤامرات القصر يقودُها هذا الطبيب فنفاه إلى البحرين، وحاول الفَتْكَ بالقادةِ الأتراكِ الذين تدخلوا في شؤون الحكم، فقضوا عليه.

إنها باختصارٍ فترةُ تَصَارُعٍ قوىً سياسية تسعى كل منها لتصفيةِ حساباتٍ قديمةٍ فتُحَرِّكُها الأحقادُ وبهذه الأحقاد تختل الموازين ويضيع التمييز بين المُخْلِص والمُنَافِقِ والعالِمِ الحقيقيِّ والأديبِ الرائِدِ، والدَّعِيِّ الجاهل الذي يصل بتمويهه إلى مقام الحكم على العلماء والأدباء فيحتال للحَطِّ مِنْ شأن ذَوِي الشأن منهم.

أشار الجاحظ إلى هذه المحنة حين استهل رسالته إلى أبي الحسن عبيد الله بن يحيى بن خاقان فقال إنه يُؤَلِّفُ في موضوعاتٍ بديعةٍ عصريةٍ أخلاقِيَّةٍ ورَجَاءُ أن يصرف عنايته إلى قراءَتِها، وبدأ رسالته بالشكوى من نُقَّادِ ذلك الزمان فهم قليلو العلم، أقحم الواحِدُ منهم نفسَه في العلماءِ فلبَسَ لُبُوسَهُم واتَّسَمَ بِسِمَاتِهم، ولكنه حين أحس العجزَ في نفسِه عن أن يبلغَ مَبْلَغَهم، امتلأت نفسُه حِقْدًا عليهم وحَسَدا لهم، ثم أخذ هذا الحَسَدُ مظهره الخارجي في صورة النقد لهم والانتقاص منهم، وقد رأى أن ذلك يَقِفُه معهم ويَضَعُه في مَصَافِّهم.

فالجاحظ يقرر أن هذا النقدَ صار أداةَ سَطْوٍ واغتصَابٍ واقتِنَاصٍ للمَالِ من المرتزقين بتهديدِهم وشَهْرِ سِلاَحِ النقدِ فى وُجُوهِهم وتَعْرِيضِ كُتُبِهم للكَسَادِ عند هذا الأمير أو ذاك.

جاءت معالجته لهذه القضية فى أول الرسالة حين وازن بين العلماء والأدباء المحقين وبين الأدعياء الحساد المنتحلة الذين يدَّعُون مثل دعاويهم وفى آخرها حين تكلم عن الحاسد العارف الذى يغتال الكتاب ويحتال فى إسقاطه.

وذهب فى رسالته إلى أن التغيُّرَ السياسِىَّ والاجتماعِىَّ يجب أن تحكُمَهُ ضوابِطُ شرعية موضوعية مشروحة فى كتب علمية أدبية يبتغى كاتِبُوها وجهَ اللهِ ومصلحةَ الوطن، وتتاح لهم الفُرَصُ لشرح كتبهم وإثبات صِحَّة ونَفْعِ مادَعَوْا إليه وإثبات أنهم التزموا الجادَّةَ، كما تتاحُ لأصحاب الرأى الآخَرِ الفُرَصُ المتكافِئَةُ لمناظَرَةِ المؤلفينَ بهدف الإيضاح أو التعديل بحيث لا يبقى مطروحًا أمام الجمهورِ مِنْ خُطَّةِ عَمَلٍ إلا ماهو مفهوم ونافِعٌ ومُؤَيَّدٌ.

يتمثل الحل الذى طرحه الجاحظ للمحنة التى يمر بها مجتمعه فى ثلاث نقاط:

أولها: أن التغيير ينبغى أن تكون قيادَتُه فكريةً ممثلةً فى كِتَابٍ وكَاتِبٍ له رصيدُه من العِلم والاخلاص.

وثانيها: وجوب توفر الحوار العلمى الحر الذى يناقش فيه كلُّ المفكرين فِكْرَ الكاتِب فى كتابه.

وثالثها: ضرورة إبعاد أدْعِيَاء العِلم والأدب عن المناصِب الحساسة فى مجال تقدير الكتب وتنفيذ ما أقره المفكرون منها. وهو حل يجمع بين الذاتية والموضوعية كماترى.

وقد أحسن الجاحظ الانتقال إلى موضوعه الذى عقد عليه الرسالة وهو المقايسة بين العداوة والحسد بالخبر الذى رواه عن الدعاوى التى قالها محمد بن العباس الطرسى فى مجلس الخليفة المأمون حين نَقَدَ كتابا غابَ مؤلِّفُه عن المجلس، ثم تَنَصَّل مما قال حين حضر مؤلف الكتاب ودَعَاهُ إلى المناظرة فَنَكَلَ وقال: "لاخِلاَف بينى وبينك". ورزى الجاحظ تشخيص الخليفة المأمون هذا الداء ووصفَهُ الدواءَ فى عبارة وجيزة أشبه

بالتوقيعات، قال: (إنَّ الكُتُبَ عُقُولُ قَوْمٍ وَرَاءَها عِنْدَهُم حُجَجٌ لها، فما ينبغي أن يُقْضَى على كتابٍ إلا إذا كان دافِعٌ عنه، وخَصْمٌ يُبَيِّنُ عما فيه. فإنَّ أبناءَ النَّعَمِ وأولادَ الأُسْدِ محسُودُونَ.)

ليس من الحكمة أو من البيان أن نشرح لك ماروواه الجاحظ من آثار عن الحسد أو تعريفه الحسد أو الموازنة بين الحسد والعداوة، فالجاحظ سيد كتاب العربية وكلُّ الأُدَبَاءِ وكلُّ دَارِسِي الأدب أَكَلُوا على مائِدَةِ الجاحظ، فلماذا نَحْرِمُكَ قِرَاهُ؟! الزم النص الذى أوجزناه لتحفظه، لكن لاتنس أنك أمام كاتب تحتاج لكى تستكشف مراميه إلى أن تستخدم ذكاءك.

ألا توافقنى الرأى أن تنظيره الحسد كان فيه مُحِقًّا مُصِيبًا، ولكنه أراد من وَرَائِه أن يصنَعَ اتجاها ضِدَّه يقومُ على رَفْضِهِ والبَرَاءَةِ مِنْهُ، وأن تنظيره العداوةَ والمقايسة بينها وبين الحسد صنع به مَخْرَجًا لكُلِّ حاسِدٍ لكى يقولَ إنه لايحسُدُ ولكنه يختلِفُ فى الرأى، والاختلافُ فى الرأيِ مَشْرُوعٌ، وله أسبابه، والصُّلْحُ خَيْرٌ، فهو صاحِبُ خُطَّةٍ ذكية ناجحة لِوَقْفِ مَدِّ التدهورِ الأخلاقِيِّ فى مجتَمَعِه.

ولايفوتنك تصويرُهُ أصنافَ الحاسِدين وكأنه يرسم أَبْعَادَ شخصية مسرحية لحاسد جاهل فاقد للموهبة ودراسته سطحية ولكن طموحه يغريه بادعاء الموهبة والعلم، فاذا تحقق له هذا المظهر افش طعن فى رؤساء العلماء والأدباء، فماذا تتخيله يقول ويفعل؟!

وانظر إلى أبعاد هذه الشخصية المريضة بمرض آخر؛ حاسد عالم يدعى التثبت والتأنى فيوهم أنه يقصد إلى الحق، ولكنَّ الحِقْدَ المُرَكَّبَ فيه يوجِّهُه لكى يظلم عالما ويُضَيِّع جهده ويُجَوِّعَه. أليست هذه شخصية مختلفة؟! تحسد الناجحين وتسعى لكى يتأخروا عن المكانة التى صنعوها لأنفسهم بِعَرَقِهم. إنهم أعداء النجاح. هل ترى أحدا منهم اليوم؟ المفارقة فى هذه الشخصية أن صاحِبَهَا عالِم يستطيعُ بعلمه أن يَصِلَ إلى تحقيق مايَرْجُوهُ لنفسه من مكانَةٍ عالِيَةٍ، ولكن سببا مايُوَجِّهُ هذه الشخصية إلى العدوان والتدمير.

لقد أشاد توفيق الحكيم بالجاحظ مرارا وقالك (كل الأدباء أكلوا على مائدة الجاحظ) وكتب عنه فصلا فى كتابه (فن الأدب)(٥) ذهب فيه إلى أن الجاحظ أول من صور صورة كاريكاتيرية بقلمه بين الأدباء قاطبة وكان يقصد شخصية أحمد بن عبد الوهاب فى كتابه (التربيع والتدوير) وقال: إنه تعلم المسرح من أدبنا العربى.

ونقول إن توفيق الحكيم قارئ ممتاز وما أثبتناه من قُدْرَةِ الجاحظ على رسم أبعاد الشخصية الحاسدة مثالٌ واحِدٌ للتصوير تؤيده مئات الأمثلة عن الجاهل المتعالم وقد مَرَّ بِكَ هذا التصوير فى أول الرسالة وقد صور فى كتابه البخلاء شخصيات: القُصَّاص، واللصوص، والشَّحَّاذِين. وأثبتنا فى كتابنا (آراء الجاحظ البلاغية ج١) أن حديثه عن الخطابة العربية مادة علمية مفيدة فى درس الحوار المسرحى.

الوحدة العضوية:

أوقفناك على حسن استهلال الجاحظ رسالته بدعائه للوزير أبى الحسن عبيد الله بن يحيى بن خاقان: (أصحب الله مدتك السعادة والسلامة، وقرنها بالعافية والسرور، ووصلها بالنعمة التى لاتزول، والكرامة التى لاتحول).

ألا ترى أن الحاسد شقى والمحسود أشقى منه بكيده الذى لايعرف له دافعا أوحَداً أو نهاية؟ لقد أوقفناك على حَسَدِ المنتصرِ لأبيه المتوكل الذى انتهى بزوال الملك والكرامة والسرور، معنى هذا أن هذا الدعاء استهلالٌ بارِعٌ أوْجَزَ فيه الجاحظ موضوع الرسالة وأشار إشارات ذكية إلى وُجُوبِ اهتمام الوزير بموضوع الرسالة لكى يسلم الحاكم والمحكوم اللذين تجمعهما سفينةٌ واحدة ويجب عليهما أن يتعاونا على سلامتها.

ورأيت كيف قدم الجاحظ رسالته بالموازنة بين العلماء المُحقِّين وأدعياء العلم الذين يحسدون العلماء ثم انتقل بخبر الحاسد فى مجلس الخليفة المأمون وتشخيصه داء الحسد ووصفه دواءه وكيف نَظَّرَ الجاحظ الحَسَدَ وأوْجَدَ مخرجا للحاسدين لكى يتصلوا منه ويدَّعُوا أنهم لايحسدون وإنما يخاصمون. وكل هذه الأفكار يُفْضِى بعضُها إلى بعضٍ بصورةٍ طبيعية غيرِ مُتكلَّفَةٍ.

وانظر إلى جودة القطع أو حسن الخاتمة الذى ينبغى أن يتصل بالموضوع ويتسم بالايجاز ويحمل وجهة نظر الأديب فى عبارة آسرة تدوم حلاوتها فى الذاكرة. تتمثل هذه الأوصاف فى قوله: "وكُنْتُ امرأ قليل الحُسَّادِ حتى اعتصَمْتُ بعُرْوَتِك، واستَمْسَكْتُ بحبلك، واستدرَيْتُ فى ظِلِّك، فتراكَمَ علىَّ الحُسَّادُ، وازدحموا، وَرَمَوْنِى بِسِهَامِهِم مِنْ كُلِّ أَوْبٍ وَأُفُقٍ، وتَتَابَعُوا عَلَىَّ تَتَابُعَ الدَّبْرِ على مُشْتَارِ النَّحْلِ. ولئن كَثُرُوا لقد كَثُرَ بِهُبُوبِ رِيحِكَ إِخْوَانِى، وبِنَضْرَةِ أَيَّامِكَ، وزَهْرَةِ دَوْلَتِكَ خِلاَّنِى". قليل الحساد: كناية عن النعمة المحدودة، تراكَمَ علىَّ الحُسَّادُ وازدحموا، كناية عن الخير الوفير. كثر بهبوب ريحك إخوانى: كناية عن مؤازرة الوزير ونصرته للكاتب. واستمسكت بحبلك واستدريت فى ظلك: كناية عن الطاعة وصدق الولاء.

والنص رسالة بقلم الجاحظ روى فيها آثارا قليلة فى العداوة والحسد على سبيل الاستنتاج وتأييد صحة النتائج، لم يشذ جزء منها عن الموضوع، فتحققت بما ذكرنا الوحدة العضوية للرسالة من ألفها إلى يائها.

لكن الجاحظ متهم بالاستطراد أى بالخروج عن الموضوع والعودة إليه. أول من اتهمه المستشرق الفرنسى (كارادى فو) فى كتابه عن مفكرى الاسلام. والمستشرق لم يميز بين كتب الجاحظ ونظر فى كتابيه البيان والتبيين والحيوان وهما من كتب الرواية عنده حيث يستعرض آثارا أدبية مختلفة فى معنى من المعانى الأدبية، أو يطرح قضية من قضايا الأدب ويروى آثارا تدل على مواقف من القضية تتفق أو تختلف أو تعالج القضية من عِدَّةِ زوَايا. وكُتُبُ الروايةِ هذه لايُشترط فيها وَحْدة الموضوع. فالاتهام لايقوم على أساس، لكنَّ مُرَدِّدِيه بعد (كارادى فو) علماء لهم مكانتهم أشهرهم الأستاذ أحمد أمين فى كتابه (ضحى الاسلام) يليه الأستاذ الدكتور شوقى ضيف فى كتابه (الفن ومذاهبه فى النثر العربى) وعنهما رَدَّدَ هذه المقولة كثيرٌ من الدارسين.وقد مرت بكم فى الكتاب المدرسىّ المقرر على الصف الثانى الثانوى. والوحدة العضوية المتحققة فى هذه الرسالة متحققة أيضا فى كل كتب الجاحظ المؤلفة بقلمه، قضايا يطرحها النص للمناقشة:

١- كيف تستفيد من نص الجاحظ فى تربية الطفل وبناء شخصيته بحيث تكون شخصيةً سَوِيَّةً؟

٢- كيف تستفيد من النص فى توجيه الشباب.

٣- يكثر الحديث عن قضية الالتزام فى الأدب يعنون موقف الأديب من قضايا مجتمعه.

ناقش القضية مبرزا موقف الجاحظ من قضايا مجتمعه.

٤- اكتب مقالا عنوانه (الأدب وعلم الأخلاق.)

هوامش

رسالة فصل مابين العداوة والحسد للجاحظ

(١) نشرت بتحقيق د.طه الحاجرى وبول كراوس فى (مجموع رسائل الجاحظ) وبتحقيق العلامة عبد السلام هارون فى (رسائل الجاحظ) ودرسها الدكتور طه الحاجرى فى كتابه (الجاحظ حياته وآثاره).

(٢) انظر الفصول المختارة من كتب أبى عثمان عمرو الجاحظ اختيار عبيد الله ابن حسان المنشورة بهامش كتاب (الكامل فى اللغة والأدب) لأبى العباس محمد بن يزيد المبرد ط١ - مطبعة التقدم بمصر ١٣٢٣ هـ جـ١ ص ٢ - ١٦.

(٣) تاريخ الرسل والملوك لمحمد بن جرير الطبرى ط٤ - دار المعارف بمصر ٩/١٥٦-١٥٩.

(٤) رجعنا إلى لسان العرب لابن منظور والقاموس المحيط للفيروزبادى.

(٥) فن الأدب - توفيق الحكيم - القاهرة ١٩٥٠.

الأصمعية (١)

قال سُحَيْمُ بن وَثِيلَ الرِّيَاحِيّ أَحَدُ بَنِى حِمْيَرِيّ

(بين الموهبة الراسخة والموهبة الواعدة فى الشعر)

١ – أنا ابْنُ جَلَا وطَلَّاعُ الثَّنَـــايَا ... مَتَى أَضَعِ العِمَامَةَ تَعْرِفُونِـــى

٢ – وإنَّ مَكَـــانَنَا مِنْ حِمْيَـــرِىٍّ ... مَكَانُ اللَّيْثِ مِنْ وَسَطِ العَرِيـــنِ

٣ – وإنِّى لا يَعُودُ إلـــىَّ قِرْنِـــى ... غَدَاةَ الغِـــبِّ إلَّا فِى قَرِيـــنِ

٤ – بِذِى لِبَدٍ يَصُدُّ الرَّكْبَ عَنْـــهُ ... ولا نُـوتَىٰ فَـــرِيسَتُهُ لِحِـــينِ

٥ – عَذَرْتُ البُزْلَ إِذْهِىَ خَاطَرَتْنِى ... فما بَالِـــى وبَالُ ابْنَىْ لَبُـــونِ

٦ – ومَاذَا يَدَّرِى الشُّـــعَرَاءُ مِنِّى ... وقد جاوزْتُ رَأْسَ الأَرْبَعِيـــنِ

٧ – أَخُوخَمْسِينَ مُجْتَمِعًا أَشُـــدِّى ... ونَجَّذَنِى مُـــدَاوَرَةُ الشُّـــؤُونِ

٨ – فإنَّ عُلَالَتِى وجِـــرَاءَ حَوْلِـــى ... لَذُوشِـــقٍّ عَلَى الضَّرَعِ الظَّنُونِ

٩ – سَأَحْيَىٰ ما حَيِيتُ وإنَّ ظَهْرِى ... لمُـــسْتَنِدٌ إلـــى نَضَـــدٍ أَمِيـــنِ

١٠ – كريمُ الخَالِ مِنْ سَلَفَىْ رِيَـــاحٍ ... كَنَصْلِ السَّيْفِ وَضَّاحُ الجَبِينِ

١١ – فإنَّ قَنَـــاتَنَا مَشِـــظٌ شَظَـــاهَا ... شَـــدِيدٌ مَـــدُّهَا عُنُـــقَ القَرِيـــنِ

الشاعر:

سُحَيْمُ بن وَثِيلَ ، مُخَضْرَمٌ عاش فى الجاهلية أربعين سنة وفى الاسلام ستين سنة ، وهوصاحب القصة المشهورة فى المعاقرة بالكوفة إذ خرج أكثر الناس فى البوادى ، فعقر غالب بن صعصعة _ والد الفرزدق– لأهله ناقة صنع منها طعاما ، وأهدى منه الى ناس من تميم فأهدى إلى سحيم جَفْنَةً، فكَفَأَها سُحيم وضرب الذى أتى بها ، ونَحَرَ لأهله ناقة ، ثم تفاخرا فى النحر حتى نَحَرَ غَالِبٌ مائةَ ناقة ، ولم تكن إبل سحيم حاضرة ، فلما جاءت نحر ثلاثمائة ناقة. وكان ذلك فى خلافة على بن أبى طالب،

فمنع الناس من أكلها؛ وقال:" إنها مما أُهِلَّ لغَيْرِ الله به". معنى هذا أن الجاهلية امتدت عند سحيم بعد الاسلام.

مناسبة القصيدة:

جاء رجل إلى الأَخْوَصِ والأُبَيْرِدِ يطلب هِناء (قطرانا) ، فقالاله : إنْ بَلَّغْتَ عناسُحَيْمَ بن وَثِيلَ بيتا وأتيتنا بجوابه؟ قال : نعم ، هاتياه ، فأنشداه :

إنَّ بُدَاءَتِي وجِرَاءَ حَوْلِي لَذُو شِقٍّ على الحُطَمِ الحَرُونِ

المعنى ان شعرى الذى تجود به قريحتى ارتجالا، وشعرى الذى أراجعه وأنقحه ولا أخرجه إلى أن يحول عليه الحول مجارة لكبار الشعراء لمما يشق على الشاعر الفحل أن يجاريني فيه.

يشير هذا الخبر إلىتقليد شعرى قديم عرف بالمناقضة ؛ وهومباراة شعرية هدفها أن يثبت الشاعر الواعد وجوده الفنى بين الشعراء الكبار، فهومنافسة فى مجال الابداع بين شعراء القبيلة تتناقلها القوافل بين القبائل وتجرى عادة فى الأسواق. والواضح من الخبر الذى رواه الأصمعى أن الأخوص والأبيرد كانا من الشعراء الناشئين وقد طمعا أن يرد عليهما الشاعر الكبير سحيم بن وثيل ، فأجابهما بهذه القصيدة كناية عن اعترافه بشاعريتهما. ومما تجدر الإشارة إليه أن كل من ذكروا فى خبر الأصمعى من بنى تميم ؛ وهم الأخوص والأبيرد وسحيم وصعصعة والفرزدق.

والفخر هوالغرض الغالب على المناقضة وهوفخر بالشاعرية فى مظاهرها الكثيرة. كامتلاك الطبع المواتى القادر على الارتجال وعلى التجويد والتنقيح، وطول النفس الشعرى ، والقدرة على التفنن فى منازلة الأقران والفحول وإجاباتهم فيما يخرجون إليه من أغراض؛ كالهجاء والمناقضة غير المنافرة التى غرضها الأساسى تزكية النفس لمكانة رئاسة القبيلة ، أما غرض المناقضة الأساسى فهوالفخر بالشاعرية وبالأعمال

وبالأنساب ويعتد الشاعر بتجاربه وملكاته الخاصة المميزة له عن أقرانه ، وقد يستهين بخصمه ويحذره ساخرا من شاعريته فيثير خصمه ويهدم ما بناه صاحبه لنفسه من مجد، فيرد عليه خصمه ناقضا ما بناه لنفسه. وهكذا تكثر الدعاوى وتتكرر الردود ، وتدور المناقضة فى إطار شعرى مشترك بين الطرفين هووحدة الوزن والقافية وتتكرر بعض العبارات بين الطرفين فهى حوار شعرى أقرب الى المناظرة.

المناقضة والمنافرة من سمات الأدب الجاهلى زمانا ومضمونا ولكنهما أستمرا بعد البعثة المحمدية وبخاصة فى عصر بنى أمية، فقد كان الخلفاء والولاة يغرون فى مجالسهم بين الأشراف. وكتب الأدب حافلة بتلك الأخبار وبخاصة كتاب البيان والتبيين للجاحظ.

قال الأصمعى: فلما أنشد ـ طالب القطران من الأخوص والأبيرد البيت سحيم بن وثيل أخذ عصاه وجعل يهدج(٤) فى الوادى ويقول (أنا ابن جلا وطلاع الثنايا ...)

١ – ابن جلا: ابن رجل جلا الأمور، بالحذف يعنى الواضح المكشوف.

يقال للرجل اذا كان على الشرف لا يخفى مكانه (هوابن جلا) ومن كان شريفا مقدما خبيرا أكتسب ولده خبرته فصار عمره العقلى أكبر من عمره الزمنى. فافتخاره بنفسه امتزج بافتخاره بأبيه.

طلاع الثنايا بالخفض صفه لأبيه ، وبالرفع من صفته هو. والثنايا جمع (ثنية)وهى الطريق فى الجبل أراد أنه جلد مغالب للصعوبات فهذه الصفة آلت لسحيم بالوراثة والتربية من أبيه أوابتدعها من نفسه.

(تعرفونى) قال ثعلب : العمامة تلبس فى الحرب وتوضع فى السلم . فقد استهل قصيدته بالفخر بأبيه الذى علمه من أمور الحياة ما يزيد عمره العقلى عن عمره الزمنى وهذا جعله معروفا مقدرا،وافتخر بعزيمته وحسن بلائه فى الحرب وحكمته فى السلم.

والافتخار – كما يقول ابن رشيق (٥) – " هوالمدح نفسه ، إلا أن الشاعر يخص به نفسه وقومه ، وكل ما حسن فى المدح حسن فى الافتخار ، وكل ما قبح فيه قبح فى الافتخار ، فمن أبيات الافتخار قول الفرزدق :

إن الذى سَمَكَ السَّمَاءَ بَنَى لَنَا ∴ بَيْتاً دَعَائِمُهُ أَعَزُّ وأَطْوَلُ "

والشاهد من نقائض الفرزدق مع جرير . وتقوم النقائض على الفخر . والمحمود فى الفخر أن يشرف صاحبه بأبائه وأن يزداد الآباء شرفا بأبنائهم وهذا ظاهر فى فخر سحيم بن وثيل .

٢ – حميرى : هوحميرى بن رياح بن يربوع وهوالجد الرابع لسحيم من تميم ينسب إليه بطن من بطون القبيلة . يقول سحيم إن أسرته أفضل بطون حميرى شجاعة وبأسا وهيبة .

٣ – القرن : الند، والقرين : المصاحب المقارن . والغب : أن تشرب الإبل يوما ثم تترك يوما و(فى) بمعنى (مع) والفخر هنا بالتفوق على الند فى مجال الابداع الأدبى. قال سحيم إن من يجارينى فى الابداع الشعرى لا تسعفه بديهته كل يوم وهى تواتينى وقتما أريد فيغيب قرنى عقب الجولة بيننا يوما ، ولا يأتينى إلا مع غيره لكى يستعين به.

٤ – بذى لبد: بأسد وهووصف للشاعر الذى استعان به قرنه. توتى: أراد تؤتى وسهل الهمزة . وصف سحيم الشاعر الذى استعان به قرنه أنه مخيف كالأسد لا يجرؤ أحد على التعرض له واذا جرى وراء فريسة فهى هالكة لا محالة فلا يتبعه أحد إلى موضع فريسته إلا بعد حين يأسا من إنقاذها من بين براثنه.

٥ – البزل ج بازل وهوالبعير المسن. خاطرتنى : راهنتنى من الخطر وهوالشىء الذى يتراهن عليه وابن اللبون : ولد الناقة اذا استكمل السنة الثانية ودخل فى الثالثة بعد أن تحدث عمن ظن نفسه ندا له وجاراه يوما فارتعدت فرائصه وغاب يوما عن

منازلته ولم يقابله إلا بعد أن استصحب شاعرا فحلا لا ينازل غيره إلا وهومغلوب قال سحيم انه يعذر كبار الشعراء حين ينازلونه مراهنين على الخسارة أوالمكسب أما الشاعران الواعدان الأبيرد والأخوص فهما محركان بالطموح والأمل الكاذب وهذا شأن صغار السن قليلي التجارب. شبه الشاعر الكبير بالبعير المسن وصرح بلفظ المشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية. وكذلك فعل بالشاعرين الأخوص والأبيرد. والبيت به كناية عن الاستهانة بالشاعرين. وذكرهما ـ وإن كان على سبيل الاستهانة ـ اعتراف ضمني بهما، وخطاب للقبيلة لكي تهتم بهما وترعاهما.

٦ – يدرى: يختل، والادراء : الختل. تستمر اشارته الى الشاعرين فيقول لقد كبرت وتحنكت وتجاوزت رأس الأربعين أي ٤٩ سنة واقتربت من الخمسين.

٧ – نجذنى : حنكنى وعلمنى أمور الحياة والمنجذ : المحنك. مداورة الشؤون: معالجة أمور الحياة ، يكرر ما قاله فى البيت الأول

ويربط الخبرة بأمور الحياة بالموهبة الشعرية فخبرة الشاعر بالحياة مما يرفع من طبقته وهذه المقولة تتضمن أن الشاعر من رواد القبيلة وأنه مشير على رؤسائها بما ينفع وما يضر وما يقدم وما يؤخر فى مجالات السلم والحرب.

٨ – العلالة : أن تحلب الناقة وسط النهار بعد حلبها أوله وقبل حلبها آخره ، فالوسطى هى العلالة وهى كناية عن اعتداده بطبعه المواتى بوفرة.

والجراء : المجاراة مصدر جاراه أى جرى معه.

والحولى نسبة إلى الحول يشير الى الشعر الكثير التنقيح (الحولى المحكك) والعلالة أى شعرالبديهة مقابل شعر الجراء الحولى ، وهما عند سحيم يدلان كلاهما على مكانته الرفيعة فى الشعر التى تتعب(الضرع) أى صغير السن (الظنون) أى المتوهم الذى لايوثق بما عنده، يعرض بالأبيرد والأخوص فيشير إلى صغر السن وضعف الخبرة ويقابل ذلك بما قاله عن سنه وخبرته. ولكى تدرك امتلاكه لناصية اللغة فتش عن دلالة

(ضرع) وستجد أن ضرع : خضع وذل واستكان . والضرع الصغير من كل شيء الضعيف ، والمهر الضرع الذى لم يقوعلى العدو. والضريع فى قوله تعالى (ليس لهم طعام إلا من ضريع) إشارة إلى شيء منكر قيل إنه نبات أحمر منتن الريح يرمى به البحر.

الأبيات ٩، ١٠، ١١ النضد : السرير ينضد عليه المتاع والثياب، مشظ شظاها : مثل لامتناع جانبه يحذر الأخوص والأبيرد قائلا: لا تمسا فنائنا فينا لكما منها الأذى.

بعد أن افتخر سحيم بن وثيل بمكانته فى الشعر وبأبيه وبمكانة أسرته فى العشيرة وأنه فى الطبقة الأولى من فحول الشعراء ختم قصيدته بفخر عام أنه فى القمة من المجد وسيظل فى هذه المكانة الرفيعة ما قدر له أن يعيش فقوله(وإن ظهرى لمستند إلى نضد أمين) كناية عن صفة هى الاطمئنان والثقة بالنفس وهى قريبة من أمثالنا الشعبية (من له ظهر يسنده لا يضرب على بطنه) والكناية فى بيت سحيم تذكرنا بافتخار المتنبى :

أَنَامُ مِلْءَ جُفُونِي عَنْ شَوَارِدِهَا وَيَسْهَرُ الخَلْقُ جَرَّاهَا وَيَخْتَصِمُوا

ولكن كناية سحيم فى الفخر أعم من كناية المتنبى فهويفتخر بشعره ، وسحيم يفتخر بقبيلته وأسرته وبلائه فى السلم والحرب وبشعره جميعا.

وقد عاد فى البيت العاشر الى الفخر بعشيرته (كريم الخال من سلفى رياح) وعاد أيضا إلى تكرار الفخر بعمله (كنصل السيف وضاح الجبين) فوجه الشبه بينه وبين السيف الحسم والمضاء والهيبة.

واختتم القصيدة بالتحذير للشاعرين الواعدين إن تطاولتما على فسيصيبكما الأذى حتما.

نحن فى هذا النص أما فن شعرى هوالمفاخرة ؛ وهومباراة أدبية بين شاعر يريد أن يعرفه الناس وشاعر فحل آقر الجمهور بمكانته الأدبية الرفيعة فالمفاخرة مباراة أدبية

شعرية. أما المنافرة فهى مباراة بين ندين وغالبا ما يكونان من أولاد العم، يسعى كل منها إلى وراثة مشيخة القبيلة فيزكى كل واحد منها نفسه ولا يهجوصاحبه؛ لأن الهجاء سيصيبه حتما للقرابة القريبة بينهما. والمنافرة تجمع بين الشعر والنثر ولكل من المتنافرين أن يصحب معه من يحب من الشعراء والخطباء والطهاة والمغنين ...

تبدأ المفاخرة بمبادرة كالتى أرسلها الأخوص والأبيرد وقد تكون المبادرة قصيدة كاملة وغالبا ما تتطور المفاخرة إلى أغراض أخرى كالهجاء والتكذيب والسخرية والتطاول على الخصم ويكثر الأخذ والرد بين الطرفين فتتحول المفاخرة إلى مناقضة. ولهذا حذر سحيم الشاعرين الواعدين فى ختام القصيدة.

يثير هذا النص قضية الموهبة الأدبية كيف تعلن عن نفسها وقد رأيت صورة الاعلان، ونذكرك بنص الطرفين على تمتعهما بمظهرين للعطاء الشعرى هما الارتجال دون إعداد مسبق وأن الطبع يواتى صاحبه بلا تكلف ولا تعذر ولا انقطاع فى المناسبات التى يحسن فيها الارتجال وهى الفخر والرثاء والنسيب. والمظهر الثانى للعطاء الشعرى الحولى المحكك أى المنقح الذى يحبسه صاحبه ولا يخرجه قبل أن يرضى عنه، وقد تستمر المراجعة حولا أى عاما كاملا. ويسمى هذا العطاء أيضا البديع وأغراض هذا العطاء المديح والحكمة وما تتضمنه من الدعوة إلى السلام واصلاح ذات البين وحقوق القبيلة وحقوق الجار .

ولا يتم الاعتراف بالشاعر ولا تكمل أسبابه الا اذا جمع بين هذين اللونين من العطاء وأجاد فيهما مدركا مايصلح لكل منهما من المعانى والتراكيب.

الأصمعية (٨)

قال عَبْدُ اللَّهِ بنُ عَنَمَةَ

وكان حليفا لبنى شيبان ، يرثى بِسْطَامَ بن قَيْسٍ:

١ – لِأُمِّ الأَرْضِ وَيْلٌ ما أَجَنَّتْ غَدَاةَ أَضَرَّ بالحَسَنِ السَّبِيلُ
٢ – يُقَسِّمُ مالَهُ فِينَا ونَدْعُو أَبَا الصَّهْبَاءِ اذْ جَنَحَ الأَصِيلُ
٣ – أَجِدَّكَ لَنْ تَرَاهُ ولَنْ تَرَاهُ تَخُبُّ بِهِ عُذَافِرَةٌ ذَمُولُ
٤ – حَقِيبَةُ رَحْلِهِ بَدَنٌ وسَرْجٌ تُعَارِضُهُ مُرَبَّعَةٌ ذَؤُولُ
٥ – إلى مِيعَادِ أَرْعَنَ مُكْفَهِرٍّ تُضَمَّرُ فِي طَوَابِقِهِ الخُيُولُ
٦ – لَكَ المِرْبَاعُ مِنْهَا والصَّفَايَا وحُكْمَكَ والنَّشِيطَةُ والفُضُولُ
٧ – لَقَدْ ضَمِنَتْ بَنُو بَدْرِبن عَمْرٍو ولا يُوفِي بِبِسْطَامٍ قَتِيلُ
٨ – وخَرَّ على الأَلَاءَةِ لَمْ يُوَسَّدْ كَأَنَّ جَبِينَهُ سَيْفٌ صَقِيلُ
٩ – فَإِنْ تَجْزَعْ عليهِ بَنُو أَبِيهِ لقد فُجِعُوا وفَاتَهُمُ خَلِيلُ
١٠ – بِمِطْعَامٍ اذَا الأَشْوَالُ رَاحَتْ إلى الحُجُرَاتِ لَيْسَ لَهَا فَصِيلُ
١١ – ومِقْدَامٍ اذَا الأَبْطَالُ خَامَتْ وعَرَّدَ عن خَلِيلَتِهِ الخَلِيلُ

عبدُ اللَّهِ بن عَنَمَةَ الضَّبِّيُّ كان متزوجا فى بنى شيبان نازلا فيهم ، وهو ابن اختهم – مخضرم ، شهد القادسية . وقصيدته هذه تصور شعره الجاهلى الزمان والمضمون .

مناسبتها غزوبسطام بن قيس بن مسعود سيد بنى شيبان بنى ضبة بن أد ومعه أخوه السليل بن قيس ، فلما دنا من نقا(٦) لبنى ضبة يقال له الحسن وجد بسطام ألف ناقة لمالك بن المنتفق الضبى فأغار عليها واطردها ، فلحقته خيل ضبة ، وحمل عليه عاصم ابن خليفة أخوبنى صباح ، وكان رجلا أعسر فأصاب صدغه الأيسر حتى نجم السنان من الصدغ الأيمن. وفر بنوشيبان. فالشاعر موزع الولاء بين أعمامه وأخواله ،

وهوخائف يطلب الأمن ، والموقف الذى وضعته هذه الحرب فيه موقف شديد الحساسية يستوجب عليه استخدام الحكمة والسياسة ولهما حسابات أخرى غير الصواب والخطأ والعدل والظلم،هى ماذا يقال وماذا لايقال.

انه موقف يجمد العواطف ويلجئ إلى العقل والحيلة ويحسب للمستقبل حساباته الدقيقة ويتغافل عن الماضى بحقائقه وآلامه ولا يذكر منه الا ما ينفع فى أمور الغد .

يثير النص عدة قضايا :

- الرغبة أوالرهبة أوالحب أيها أصلح للشعر وأشد إثارة لشاعرية الشاعر ؟
- أى الأمرين؛ العقل أوالعاطفة أجدى على الشعر ؟ وما مظاهر كل منهما فى شعر الشاعر ؟
- قضية مفردات الجاهلية فهى مضمون وليست إطارا زمنيا .
- قضية الولاء وعلاقتها بالعاطفة والخيال والسياسة .

١ - لِأُمِّ الأَرْضِ وَيْلٌ مَا أَجَنَّتْ غَدَاةَ أُضَرَّ بالحَسَنِ السَّبِيلُ

أم كل شىء أصله وعماده ، وللقوم : رئيسهم ، وللرأس : الدماغ . وأَمَّهُ أَمًّا فهوأميم ومأموم : أصاب أم رأسه . وضَرْبَةٌ آمَّةٌ ومَأْمُومَةٌ : بلغت أُمَّ الرأس .

والويل : حلول الشر ، والهلاك ، وتفجيع . تقول: ويله ، وويلك وويلى فى النُّدْبَة . وويل : كلمة عذاب . أَجَنَّتْ : سترت .

أُضَرَّ بِهِ : دنا منه . الحسن : كثيب بنجد فى بلاد بنى ضبه فى الموضع الذى قتل فيه بسطام .

استهل عبد الله بن عنمه تفجعه بما يشير إلى إصابة بسطام بن قيس بستان عاصم بن خليفة فى أم رأسه فتساءل بأسى :أى شر عظيم أعدته الأرض وأخفته لبسطام بن قيس حين دنا جبل الحسن من السبيل التى سلكها بسطام .

- لماذا ذكر الأرض ولم يذكر السماء ؟ لأنه جاهلى دهرى . والدهريون هم الذين عطلوا المصنوعات عن صانعها وقالوا ما حكاه الله عنهم (وما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر) ٢٤ الجاثية
- لماذا لم يذكر عدوان بسطام على بنى ضبة ؟ ولم يذكر رد بنى ضبة على بسطام ؟ ولم يذكر الموقعة التى قتل فيها بسطام؟ إن الاجابة عن هذه الأسئلة تكشف أننا أمام وثيقة سياسية تعالج القضايا التى ذكرناها.

٢- يُقَسِّمُ مَالَهُ فِينَا وَنَدْعُو أَبَا الصَّهْبَاءِ اذْ جَنَحَ الأَصِيلُ
٣- أَجِدَّكَ لَنْ تَرَاهُ وَلَنْ تَرَاهُ تَخُبُّ بِهِ عُذَافِرَةٌ ذَمُولُ

أبوالصهباء: كنية بسطام بن قيس (صاحب الخمر) جنح: مال، الأصيل: العشى. أجدك: أجدامنك. تخب: تسيرالخبب وهوضرب من السير السريع. العذافرة: الناقة الضخمة القوية. الذمول: السريعة.

بسطام بن قيس تعودنا على اللجوء إليه وقت العشى فهوالرئيس الذى نفزع إليه عند حاجتنا وعند سمرنا، وعند استقبالنا الضيوف وهوالجواد الذى يقسم أمواله على أهله. لهذه الأسباب نذكره وننديه العشى وابسطاماه!

كرر عبد الله بن عنمه أسفه وحزنه وعدم تصديقه أنه لن يرى بسطام بن قيس بعد وفاته فهولا ينسى وجوده فى مواطن يحمد عليها؛ تسير ناقته سيرا سريعا .

٤- حَقِيبَةُ رَحْلِهِ بَدَنٌ وَسَرْجٌ تُعَارِضُهُ مُرَبَّبَةٌ ذَؤُولُ
٥- إِلَى مِيعَادِ أَرْعَنَ مُكْفَهِرٍّ تُضَمَّرُ فى طَوَابِقِهِ الخُيُولُ
٦- لَكَ المِرْبَاعُ مِنْهَا والصَّفَايَا وَحُكْمُكَ والنَّشِيطَةُ والفُضُولُ

البدن: الدرع القصيرة. كانوا يجعلون الدروع وراء رحالهم فى الحقائب ليلبسوها عند الحرب. المربية يعنى الفرس التى يغذونها فى بيوتهم. الذؤول: السريعة فى خفة.

وكانوا يركبون الابل فى الغزو ويحتبون الخيول بجوارها ، فاذا حضرت الحرب تحولوا إلى الخيول. أرعن : يعنى جيشا كأنه أنف جبل يتقدمه . مكفهر: مرتفع عال كريه المنظر. تضمر: تصنع وتغذى. الطوابق ج طابق أوطبق ، وهما بمعنى العضو، أراد بها أجزاء الجيش. المرباع : ربع الغنيمة، كان الرئيس يأخذه فى الجاهلية، فلما جاء الاسلام صار الخمس بقوله تعالى (واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه) ٤١ الأنفال.

الصفايا: ح صفية،وهى ما كان الرئيس يصطفيه لنفسه من خيار الغنيمة وقد ثبتت هذه فى الاسلام. والنشيطة : ما أصابها الجيش فى طريقه قبل الغارة من فرس أوناقة. الفضول : ما فضل فلم ينقسم من الغنيمة. والنشيطة والفضول نوعان سقطا فى الاسلام.

يرى عبد الله بن عنمة أن المواقف التى لا تنسى لبسطام بن قيس هى استعداده للحرب بفرسه السريعه الخفيفة التى تحمل درعه فهومستعد للحرب فى أى وقت. ويواجه الجيش الكثير العدد الكثيف العدة يلوح كأنه أنف جبل ضخم كريه المنظر مخيف بفرسانه وعتاده.

وهومعود على النصر فى كل موقعة يدخلها ؛ يأخذ أنصبه القائد المظفر دائما؛ المرباع أى ربع الغنيمة... والصفايا... وحكمه الذى لا يرد. والنشيطة والفضول سبق ذكرهما.

٧- لَقَدْ ضَمِنَتْ بَنُوبَدْرِ بن عَمْرٍو ولا يُوفِى بِبِسْطَامٍ قَتِيلُ

٨- وخَرَّ على الأَلاءَةِ لمْ يُوَسَّدْ كَأَنَّ جَبِينَهُ سَيْفٌ صَقِيلُ

ضمنت: ابتليت.

لقد نزل البلاء ببنى بدر بن عمروبفقد بسطام بن قيس سيد القبيلة ، وهورزء جسيم فليس لبسطام ند، ولا وجود لمن يفى قتله بالثأر لبسطام. فى هذا البيت يشير

عبد الله بن عنمه إلى تفاوت أقدار الناس تبعا لأنسابهم وأموالهم ومراكزهم السياسية الجاهلية ، فرئيس القبيلة الذى يقتل فى الحرب تزداد ديته إذا أراد القاتلون الصلح سعوا إليه ، والشاعر هنا ينحاز إلى أخواله ضد أعمامه ، ويستنكر فكرة التفاوض حقنا للدماء ، ويطلب الثأر ضمنا ولا تخطر على باله قضايا صلة الرحم والحق والعدل وحسن الجوار فهذه قضايا المؤمنين ، وهوجاهلى من رأسه إلى أخمص قدمه ، عقيدته دهرية . عرف الحنيفية دين ابراهيم واسماعيل عليهما السلام واتصل باليهود من عرب وعرف كتابهم ورسولهم وأنبياءهم وعرف المسيحية كتابا ورسولا ورجالا من العرب . وسمع عن أنبياء العرب هود وصالح وشعيب الكثير – صلوات الله وسلامه عليهم جميعا – ولكنه كما هوواضح من هذه القصيدة من المعطلة الذين اعتقدوا أن المهلك هوالدهر وأن الحوادث تحدث بالطبع وأن فقدها بالموت نهاية كل حى فلا بعث ولا جنة ولا نار ، هذا ماتتضمنه قصيدته هذه . وقد تغير معتقده بعدها قبل الاسلام ، قال فى مدحه الحارث بن شريك فى المفضلية ١١٤ والأصمعية ٨٥ :

كَفَاكَ الإِلَهُ اذْ عَصَاكَ مَعَاشِرٌ ضِعَافٌ قَلِيلٌ لِلعَدُوِّ عَتَادُهَا

الدليل على دهرية عبد الله بن عنمه فى هذه القصيدة نسبته علم الغيب إلى الأرض فى أولها. ويؤكده أنه لم يذكر فى أبيات القصيدة شيئا يتصل بالسماء عن الحياة الآخرة أوعن رسالات السماء المنظمة للحياة فى الأرض؛ كالعدل والرحمة وصلة الرحم وحسن الجوار والرغبة فى السلام ونبذ الحرب وهى موضوعات يتطلبها جو القصيدة وعلاقات الشاعر الوطيدة بطرفى النزاع وهما أعمامه وأخواله .نقول ونحن مطمئنون لما نذهب إليه – لوكان عبدالله بن عنمه مؤمنا حين نظم هذه القصيدة لكان موقفه مختلفا . ونعنى الإيمان بالحنيفية أواليهودية أوالمسيحية أوبدعوات أنبياء العرب هود وصالح وشعيب . وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه فى كتابينا المذكورين(٧) أن المقابل

للجاهلية هوالإيمان وليس الإسلام . وان الفترة السابقة على الإسلام لم تخل للشرك ، وأن الجاهلية مضمون فكرى وليست إطارا زمنيا،وتناط بمضمونها الأقوال والأفعال أى الأفكار والمشاعر والقيم فى الصواب والخطأ والجميل والقبيح والعدل والظلم وأن الإسلام قد جاء موافقا لما لم يحرف من هذه الأديان ومهيمنا عليها ومذكرا بها ، قال تعالى : (إن هذا لفى الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى)الأعلى١٨-١٩.

تتصل قصيدة عبد الله بن عنمة هذه بمضمون الجاهلية فى العقيدة والأخلاق فهويصور المثل الأعلى للرجل الجاهلى ، فالحياة عنده هى القوة والحرب لكى يحصل على ما يريد وشريعة السماء لا تعنيه ولا يلتزم بها عرفها أوجهلها ، وارادته هى قانونه الذى يفرضه بالقوة ، فهويغيرعلى جاره ، يسليه كل ما يملك ، يسبى حريمه فى الحرب ، ويزنى بهن فى السلم ... هذه الأخلاق الجاهلية عرف سائد عند المشركين ، ولكنه مرفوض عند المؤمنين المشار إليهم بالحكماء والهداة والمتألهين وهم كثيرون ؛ منهم ورقة بن نوفل ، وزيد بن عمرو بن نفيل وزهير بن أبى سلمى وقس بن ساعدة الإيادى وحاتم بن عبدالله بن سعد الطائى وأميه بن أبى الصلت ، والأفوه الأودى وعامر بن الظرب العدوانى والخنساء وغيرهم . والمثل الأعلى عندهم مقابل لما ذكره عبدالله بن عنمه عن صاحبه بسطام بن قيس أنه مات فى ميدان القتال ولم يمت حتف أنفه(٨) ، وأنه ودع الحياة صافى الجبين كالسيف المصقول كناية عن الرضا بما فعل والاطمئنان إلى أن الموت نهاية كل حى وليس بعده بعث وحساب (٩) . لقد سقط مستندا إلى شجرة الألاءة وهى شجرة مرة من أشجار الصحراء بنقاالحسن .

٩ – فإنْ تَجْزَعْ عَلَيْهِ بَنُو أَبِيهِ لقد فُجِعُوا وفَاتَهُمُ خَلِيلُ

١٠ – بِمِطْعَامٍ اذَا الأَشْوَالُ رَاحَتْ إلى الحُجَرَاتِ ليس لها فَصِيلُ

١١ – ومِقْدَامٍ إذَا الأَبْطَالُ خَامَتْ وعَرَّدَ عَنْ خَلِيلَتِهِ الخَلِيلُ

الأشوال : ج شول ، الابل التى شالت ألبانها أى ارتفعت .

الحجرات : ج حجرة وهى حظيرة الابل . الفصيل : ولد الناقة عرد : أحجم وفر. حليلتك : امرأتك وأنت حليلها ، حليل للمذكر والمؤنث من الحلال (١٠).

٩- ليس بمستغرب أن يجزع آل بسطام لفقده ، فموته فاجعة لكل بنى شيبان ؛ لقد فقدوا بطلا يوفر لهم الأمن وحبيبا لكل فرد منهم .

١٠ - فهوجواد يطعم العامة حين يعز الطعام فى القحط .

١١ - وهوشجاع لا يعرف الخوف طريقه إلى قلبه يقدم حين يجبن الأبطال ويحمى الأعراض والأموال حين تلجئ المخاطر المؤكدة الزوج على الفرار تاركا حماية زوجه وهذه الصورة كناية عن هول المعركة.

الباعث أوالمحرك لنظم هذه القصيدة عند الشاعر الخوف من أخواله بنى شيبان، والطمع فى الحياة الآمنة الرافهة بينهم فالرهبة والرغبة سيطرا عليه. والأفضل أن يصدر الشاعر عن الحب المحرك للخيال ، ولكن مناسبة القصيدة وبيئة الشاعر بعناصرها الزمانية والمكانية والاجتماعية ألجأته إلى استعمال العقل وكبح جماح العاطفة والميل إلى أخواله والجور على أعمامه فى ذلك الظرف العصيب انتظارا لفرصة قابلة يبرد فيها الغضب وتنسى الأيام لواعج الأحزان عند بنى شيبان فيدعوفيها للصلح مع أعمامه بنى ضبة . ولماذا ننكر عليه حبهم وهم أخواله المرتبط بهم حاضره ومستقبله ولكننا نستبعد أن يجفوأعمامه !

لهذه الأسباب وصفنا هذه القصيدة بأنها وثيقة سياسية يحكمها العقل وتخبوفيها العاطفة ولا يحلق فيهاالخيال بعيدا عن الأرض ، تدلل على ما نقول بما يأتى :

•انحاز الشاعر فى الولاء لبنى شيبان برغم عدوانهم على بنى ضبه ، وتملقهم بقوله (أضر بالحسن السبيل) فالعبارة لا تدل على عدوان ولا على مسؤولية وانما تدل على

قضاء نزل ببسطام . والبيت تهويل ومبالغة ليس لها رصيد من العاطفة لأنه عطل من الخيال.

•وكذلك انحاز لبنى شيبان فقال (ولا يوفى ببسطام قتيل) وقد يكون هذا الانحياز مقبولا اذالم يكن عبد الله بن عنمة من بنى ضبه . فهل تصل مبالغته فى تقدير بسطام ابن قيس داعية إلى غزوبنى ضبه وتأديبهم بالاكثار من القتلى منهم ؟ إنها مبالغة أراد بها ترضية مشاعر بنى شيبان وإثبات ولائه لهم رهبة منهم ورغبة فى الأمن على مستقبله وأسرته بينهم .

• من الخيال غير المحلق فى القصيدة (ندعوأبا الصهباء) كناية عن موصوف و(إذ جنح الأصيل) كناية عن السمر والاجتماع فى المساء والبيت الرابع كله كناية عن صفة هى الاستعداد المستمر للقتال. وقوله (إلى ميعاد أرعن ..) استعارة تصريحية شبه الجيش بالجبل الذى له نتوء كأنه أنف وصرح بلفظ المشبه به ورشح الاستعارة أى قواها وأكدها بقوله (مكفهر) وقوله (تضمر فى جوانبه الخيول) والبيت السادس كله كناية عن النصر والسيادة .

والبيت الثامن كناية عن النبل والرضا، وقوله فى البيت العاشر (الأشوال راحت إلى الحجرات ليس لها فصيل) كناية عن القحط والمجاعة . وقوله فى البيت الأخير (الأبطال خامت وعرد عن حليلته الحليل) كناية عن هول المعركة .

قلنا إن القصيدة يغلب عليهاالعقل وتكبح فيها العواطف ، وإن الخيال قريب من الأرض وتساءلنا عن صدور الشاعر عن رهبة أورغبة أوعاطفة أى هذه الأمور أصلح للشعر .والجواب فى هذا الظرف العصيب الذى نظم فيه الشاعر قصيدته مختلف عما يقال فى الأمن . فللقصيدة هدف واضح أن يأمن الشاعر على حاضره ومستقبله فى وقت الحرب وقد نجح فى تحقيقه بالفكر ، فالخيال والعاطفة مطيتان لا تبلغاه المكان الذى يريده ، واذا تملق بنى شيبان أخواله وجار على بنى ضبة أعمامه . وسكت عن

الظلم فهذه الخطة من أساليب التماس الأمن وقت الحرب ويستطيع فى وقت السلم أن يعوض ما فاته. يكفى أنه حقق فى قصيدته الوحدة العضوية فالموضوع واحد هوالتماس الأمن فى وقت عصيب اقتتل فيه أعمامه وأخواله فرثى سيد بنى شيبان. والحوالنفسى الحزن لفقده وبيان آثاره التى استحق عليها الحمد؛ تدل على الحزن والأسى عباراته (ويل لأم الأرض) و(أضر بالحسن السبيل) و(ضمنت بنوبدر بن عمرو) و(خر على الألاءة) و(تجزع عليه بنوأبيه) و(فجعوا وفاتهم خليل) . و(أجدك لن تراه).

وتدل على الرثاء بتعديد مناقب المرثى عبارات (يقسم ماله فينا) و(تخب به عذافرة ذمول) وقوله .

لَكَ المِرْبَاعُ مِنْهَا والصَّفَايَا .. وحُكْمُكَ والنَّشِيطَةُ والفُضُولُ

كما وصفه بعد الرئاسة انه خليل أى صديق حميم لكل أفراد القبيلة .

أما البيتان الأخيران فقد أثبت له فيهما الغايتين اللتين ليس بعدهما غايتان لشيخ القبيلة وهما الإطعام بكثرة باستمرار وبلا حدود لعامة أفراد القبيلة ومن يجاورهم من الفقراء وقت الجدب . والشجاعة منقطعة النظير فى الدفاع عن الحرمات فى الوقت الذى يضطر الأبطال فيه إلى الفرار ، والهلاك المحقق الذى يجعل الزوج يحبن عن تخليص زوجه من أسر الغزاة .

أثبتنا للقصيدة استهلالا مناسبا لمصرع بسطام بن قيس بما فيه من ذكر الويل لأم الأرض ، وأثبتنا للشاعر حسن الانتقال إلى موضوعه وهوذكر ما يحمد عليه المرثى وما يخلده بين قومه. وفى البيت الثامن ذكر الشاعر شجرة بموضع من الأرض خر عليه بسطام صريعا هى الألاءة وارجع إلى الشطرة الثانية من البيت الأول تجد عبارة هى (أضر بالحسن السبيل) والألاءة شجرة مرة من أشجار نقا الحسن . ألا يدلك هذا

على ترابط أبيات القصيدة وأنها قد اجتمعت لها الوحدة العضوية ؛ وحدة الموضوع ووحدة الجوالنفسى . وألا يثير فيك تكرار ذكر موضع من الأرض تساؤلا ما السر فى هذا التكرار ؟

لقد تحول (نقا الحسن) على لسان عبد الله بن عنمه إلى طلل يبكيه ويسبغ عليه مشاعر التقديس والإجلال. وفى عرف الشعراء أن العمر يهون إلا ساعة وأن الأرض تهون إلا موضعا . وفى الحديث عن الرمز فى الأطلال كلام يطول نرجوأن نعرض له فيما بعد .(١١)

الأصمعية (١٠)

وقال عُرْوَةُ بنُ الوَرْدِ

١ – أَقِلِّي عَلَيَّ اللَّوْمَ يابْنَةَ مُنْذِرٍ
ونَامِي، فَإِنْ لَمْ تَشْتَهِي النَّوْمَ فاسْهَرِي

٢ – ذَرِينِي وَنَفْسِي أُمَّ حَسَّانَ إِنَّنِي
بِهَا قَبْلَ أَنْ لاأَمْلِكَ البَيْعَ مُشْتَرِي

٣ – أَحَادِيثُ تَبْقَى والفَتَى غَيْرُ خَالِدٍ
إِذَا هُوَ أَمْسَى هَامَةً تَحْتَ صَيِّرِ

٤ – تُجَاوِبُ أَحْجَارَ الكِنَاسِ وتَشْتَكِي
إِلَى كُلِّ مَعْرُوفٍ تَرَاهُ ومُنْكَرِ

٥ – ذَرِينِي أُطَوِّفْ فِي البِلَادِ لَعَلَّنِي
أُخَلِّيكِ أوأُغْنِيكِ عَنْ سُوءِ مَحْضَرِ

٦ – فَإِنْ فَازَ سَهْمٌ للمَنِيَّةِ لَمْ أَكُنْ
جَزُوعًا،وهَلْ عَنْ ذَاكَ مِنْ مُتَأَخَّرِ

٧ – وإِنْ فَازَ سَهْمِي كَفَّكُمْ عَنْ مَقَاعِدٍ
لَكُمْ خَلْفَ أَدْبَارِ البُيُوتِ ومَنْظَرِ

٨ – تَقُولُ : لَكَ الوَيْلَاتُ هَلْ أَنْتَ تَارِكٌ
ضُبُوءًا بِرَجْلٍ تَارَةً وبِمَنْسَرِ

٩ – ومُسْتَثْبِتٌ فِي مَالِكَ العَامَ إِنَّنِي
أَرَاكَ عَلَى أَقْتَادِ صَرْمَاءَ مُذْكِرِ

١٠ – فَجُوعٍ بها للصَّالِحِينَ مَزِلَّةٍ
مَخُوفٍ رَدَاهَا أَنْ تُصِيبَكَ فاحْذَرِ

١١ – أَبَى الخَفْضَ مَنْ يَغْشَاكِ مِنْ ذِى قَرَابَةٍ
ومِنْ كُلِّ سَوْدَاءِ المَعَاصِمِ تَعْتَرِى

١٢ – ومُسْتَهْنِئٍ زَيْدٌ أَبُوهُ فَلا أَرَىٰ
لَهُ مَدْفَعًا، فاقْنَىٰ حَيَاءَكِ واصْبِرِى

١٣ – لَحَىٰ اللَّهُ صُعْلُوكًا إِذَا جَنَّ لَيْلُهُ
مَضَى فِى المُشَاشِ آلِفًا كُلَّ مَجْزِرِ

١٤ – يَعُدُّ الغِنَى مِنْ دَهْرِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ
أَصَابَ قِرَاهَا مِنْ صَدِيقٍ مُيَسَّرِ

١٥ – قَلِيلَ الْتِمَاسِ المَالِ إلا لنفسِهِ
إذا هُوأَضْحَى كالعَرِيشِ المُجَوَّرِ

١٦ – يَنَامُ عِشَاءً ثُمَّ يُصْبِحُ قَاعِدًا
يَحُتُّ الحَصَى عَنْ جَنْبِهِ المُتَعَفِّرِ

١٧ – يُعِينُ نِسَاءَ الحَيِّ ما يَسْتَعِنَّهُ
فيُضْحِى طَلِيحًا كالبَعِيرِ المُحَسَّرِ

١٨ – ولله صُعْلُوكٌ صَفِيحَةُ وَجْهِهِ
كَضَوْءِ شِهَابِ القَابِسِ المُتَنَوِّرِ

١٩ – مُطِلًّا على أعدائِهِ يَزْجُرُونَهُ
بساحَتِهِم زَجْرَ المَنِيحِ المُشَهَّرِ

٢٠- وإنْ يعُدُوا لا يَأْمَنُونَ اقْتِرَابَهُ
تَشَوُّفَ أهلِ الغائِبِ المُتَنَظِّرِ

٢١ - فذلِكَ إنْ يَلْقَ المَنِيَّةَ يَلْقَهَا
حَمِيدًا ، وإن يَسْتَغْنِ يَوْمًا فأَجْدِرِ

٢٢ - أَتَهْلِكُ مُعَتِّمًا وَزَيْدًا ولَمْ أَقُمْ
على نَدَبٍ يَوْمًا ولِي نَفْسُ مُخْطِرِ

٢٣ - سيُفْزِعُ بَعْدَ اليَأْسِ مَنْ لا يَخَافُنَا
كَوَاسِعُ فى أُخْرَى السَّوَامِ المُنَفِّرِ

٢٤ - نُطَاعِنُ عَنْهَا أَوَّلَ القَوْمِ بالقَنَا
وبِيضٍ خِفَافٍ وَقْعُهُنَّ مُشَهَّرُ

٢٥ - ويومًا على غَارَاتِ نَجْدٍ وأَهْلِهِ
ويَوْمًا بأَرْضٍ ذَاتِ شَثٍّ وعَرْعَرِ

٢٦ - يُنَا قِلْنَ بالشِّمْطِ الكِرَامِ أُولِي النُّهَى
نِقَابَ الحِجَازِ فى السَّرِيحِ المُسَيَّرِ

٢٧ - يُرِيحُ عَلَيَّ اللَّيْلُ أَضْيَافَ مَاجِدٍ
كريمٍ ، ومالِي سَارِحًا مَالُ مُقْتِرِ

الشاعر : عروة بن الورد بن زيد بن عبد الله (١٢) ، من عبس شاعر فارس من شعراء الجاهلية . كان فى شرف من قبيلته ، ولكن أباه كانت عبس تتشاءم به ، لأنه هوالذى أوقع الحرب بينها وبين فزارة بمراهنته حذيفه . أما أمه فقد ذكر فى شعره أنها من نهد من قضاعه وكان دائم السخط على هذه الصلة التى ربطت بين أبيه وأمه ، وقد هجا أخواله هجاء مرا .(١٣)

ومن أخباره نعرف أن أباه كان يفضل أخاه الأكبر عليه مع استغنائه وحاجة عروة الأصغر إلى الأب .

كان عروة يدعى (عروة الصعاليك) لجمعه اياهم وقيامه بأمرهم إذا أخفقوا فى غزواتهم . ولم يكن لهم معاش ولا مغزى . وقيل إنه لقب بذلك للبيت ١٣ من هذه القصيدة .

من الصعاليك ؟ قال ابن منظور فى لسان العرب (ص ع ل ك) :

" الصعلوك : الفقير الذى لا مال له. زاد الأزهرى : ولا اعتماد . وقد تصعلك الرجل اذا كان كذلك . قال حاتم الطائى :

غَنِينَا زَمَانًا بالتَّصَعْلُكِ والغِنَى ... فَكُلًّا سَقَانَاهُ بِكَأْسَيْهِمَا الدَّهْرُ

فَمَا زَادَنَا بَغْيًا على ذِى قَرَابَةٍ ... غِنَانَا ، ولا أَزْرَى بأَحْسَابِنَا الفَقْرُ

أى عشنا زمانا . وتصعلكت الإبل : خرجت أوبارها... والتصعلك : الفقر . وصعاليك العرب ذؤباتها . وكان عروة بن الورد يسمى عروة الصعاليك ؛ لأنه كان يجمع الفقراء فى حظيرة فيرزقهم مما يغنمه".(١٤)

وأشهرهم : عروة بن الورد وكان منافسا لحاتم الطائى فى الكرم فهو يمثل الجانب الانسانى فيهم، والشنفرى ومنهم : تأبط شرا، وقيس بن الحدادية ، والسليك ابن السلكة ، والأعلم الهذلى ، (وأبوخراش الهذلى) ، وأبوكبير الهذلى ، وحاجز الأزدى ، وعمروبن براق ، وصخر الغى ، وأبوالطمحان القينى) وكانوا شعراء ولم يذكر منهم خطباء ، ولم يرد ذكر لمن تصعلك ولم يكن شاعرا، ووضعنا اسم من أدركه الإسلام بين قوسين. والصعلكه جاهلية تنافى الإيمان .

يتصف الصعاليك بصفات هى : الفقر الشديد أى الجوع المستمر ، واستهانة القبائل بهم ومقابلتهم هذه الاستهانه بالعدوان .كما اتصفوا بالكرم والشجاعة والإغارة على الأغنياء فى مساكنهم وقوافل تجارتهم واشتهروا بقوة العزيمة والقوة البدنية والمهارة القتالية والصبر على الجوع والسرعة الفائقة فى العدو، وسعة الحيلة وعمق الدهاء :(١٥)

يقسمهم الدكتور يوسف خليف إلى ثلاث طوائف:

١ - الخُلَعاءُ والشُّذَّاذُ : وهم الذين أنكرتهم قبائلهم وتبرأت منهم وطردتهم من حماها وطبقت قبائلهم عليهم قانونها (فى الجريرة تشترك العشيرة) ووصل بهم التمرد إلى حد أن قبائلهم أصبحت لا تحتمل لهم جريرة ولا تطالب بجريرة يجرها أحد عليهم.

٢ - الأَغْرِبَةُ ، وهم السود الذين سرى إليهم السواد من أمهاتهم الإماء فلم يعترف بهم آباؤهم مثل تأبط شرا ، والسليك بن السلكة .

٣ - طائفة الفقراء المتمردين الذين تصعلكوا ؛ ويمثلهم عروة بن الوردومن كان يلتف حوله من فقراء العرب فكلهم فقدوا توافقهم الاجتماعىوسلكوا السلوك الصراعى(١٦).

الشرح :

١ - خاطب عروة زوجه واسمها سلمى كان قد سباها من كنانه وأعتقها وأولدها أولاده ، فأجرى معها حوارا ناداها بابنه منذر ، وأم حسان ، وهما كنايتان عن موصوف تشيران إلى ما يكنه لها من حب وتقدير . والموضوع فى هذا الحوار هومسؤولية الزوج أمام الزوجة تجاه أعباء الحياة ، فهى تلومه على إقباله على الإغارة التى تعرضه للمخاطر وهويبرر لها سلوكه أنه ضرورة لا مفر منها، وهى تلومه على إنفاق ماله على أصحابه فى الإغارة ، وأسرته أحق من أصحابه بذلك المال ، فيرد عليها شارحا لماذا صار قائدا للصعاليك وماذا يريد أن يغير من أمرهم وماذا يسعى إليه لتكمل صورتهم فى نظره .

ناداها فى البيت الأول (يابنة منذر) وهذا النداء يتضمن اعتذاره لها عما سلف منه نحوها فالمقرر اقتران الزواج بالبهجة فى حفل يتعارف فيه المتصاهرون ويطلب يكرم فيه الأب ، والمعروف أن عروة أخذها من أبيها بإغارة صارت فيها سبية وهزم أبوها .إنه يناديها بعد أن أعتقها وأولدها . فما الغرض البلاغى لأفعال الأمر الثلاث فى البيت الأول (أقلى) و(نامى) و(اسهرى).

البلاغة الحرفية تدل أن صيغ الأمر هذه غرضها البلاغى الالتماس لأنها بين الأنداد والنظراء المتساوين قدرا ومنزلة ، وهذا مثل قول امرئ القيس لصاحبيه :

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ بِسَقْطِ اللِّوَى بين الدخُول فحَوْمَلِ

وعندنا أن الغرض البلاغى لهذه الأفعال هوالتمنى ، وهوطلب الأمر المحبوب المرجووقوعه لا ستحالته، أولكونه ممكنا بعيد المنال ، فالأمر هنا كالأمر فى قول امرئ القيس من حيث البلاغة :

ألا أيها الليلُ الطويلُ ألا انْجَلِ بِصُبْحٍ وما الإِصْبَاحُ مِنْكَ بأَمْثَلِ

وتفسيرنا : إن طلبه منها الإقلال من اللوم مستحيل ، فهويبذل ماله لأصحابه ويعرض نفسه للهلاك بالإغارة والتعرض للمخاطر وهى محتاجة تشكومن الجوع أياما وليالى ، وهى خائفة على زوجها كثير التعرض للمخاطر فكيف تكف عن اللوم؟ وكيف تنام وهى على هذه الحالة ؟ بل كيف تسهر ، والسهر غير الأرق ، فالسهر ترك النوم جلبا للسمر أوطلبا للعلا ، أوالتماسا لبهجة تتحقق فى الطرب أوالسمر أوالحب أوالطعام والشراب أوفى هذه الأمور مجتمعة.

فالشاعر يتمنى أن تكف زوجه عن اللوم أوتقلل منه كما يتمنى أن تنام أوأن تسهر ولا سبيل إلى تحقيق أمنية واحدة من هذه الأمانى .

٢ - ذرينى :دعينى. أم حسان : كناية عن موصوف هـو امرأته سلمى ، وتشير إلى التكريم، كما تتضمن مزيدا من الاعتذار لزوجه.

البيع هنا بمعنى الشراء. ويعنى بنفسه روحه . المعنى : دعينى مع نفسى قبل أن تفارقنى إنها تحدثنى مطالبة أن ابتنى لها بمالى مجدا وذكرا فى حياتى قبل أن يحول الموت بينى وبينها ولا أملك الشراء.

٤،٣ أحاديث بالرفع استئناف ، وبالنصب مفعول لمشترى فى البيت الثانى . الهامة : كانت العرب فى جاهليتها تزعم أن روح القتيل الذى لم يدرك بثأره تصير هامة (طائرا) فتصيح عند قبره تقول اسقونى اسقونى ، فإذا أخذ بثأره طارت . الصير : القبر. الكناس: مكان

المعنى : يقول ما تحدثنى نفسى به هوما يخلدنى بعد موتى وكل إنسان يموت وينادى طائره (هامته) اسقونى اسقونى وتردد الصدى أحجار الكناس وتبلغ الهامة كل من تعرفه ومن لا تعرفه بطلبها الثأر لى .

يفترض عروة بن الورد أن كل من يموت يموت مقتولا وأن أولياءه حتم عليهم أن يأخذوا بثأره. ولذلك لم يجد عبد الله بن عنمه حرجا حين مات بسطام بن قيس وهويغزوبنى ضبه مقتولا ؛ فالجاهلية تقرر أن موت الرجال بالقتال أوبالثأر . والعار أن يموت الرجل مُوَسَّدًا . هذا عرف شاع عن الجاهليين .

٥ - التخلية : الطلاق ، كنى بها عن قتله . أغنيك : أصيب حاجتى ، فأغنيك عن أن تحضرى محضرا سيئا يعنى المسألة . تجد أن الحوار الدائر بين الزوجين ينذر بالفرق بينهما ؛ فالزوجة قلقة على زوجها تحذره من التعرض للمهالك بغزوالآمنين وسرقة ممتلكاتهم وتشير إلى من يصيبهم المكروه من عدوانه أنهم الصالحون تعنى المؤمنين بالله وملائكته ورسله وما وصل إليهم من مضمون صحف إبراهيم وموسى وإنجيل عيسى عليهم الصلاة والسلام فهى تنحاز إليهم .

أما هوفيعلن أن حقده سيصيب به كل الأغنياء ، وقد صار غنيا مثلهم باعترافها وطلبها أن يبقى معها العام يستثمر أمواله ويرعى زوجه وأولاده ، ولكنه يعلن لها أنه سيطوف فى البلاد أى فى كل شبه الجزيرة لا يستثنى مكانا ولا قبيلة وسيرد فى البيتين ٢٤و٢٥ ما يؤكد وصف مَنْ يُغير عليهم فى البيت ١٩ أنهم أعداؤه . فهذا فرق جوهرى بين الزوجين فهى تنحاز إلى من يسميهم أعداءه .

إنها تحبه وتريد أن تعيش معه الحياة حُلْوَهَا ومُرَّهَا وترى أنْ ما ملكته بعد الفقر يُغنيها ويسعدها إذا تعاونت مع زوجها وأولادها فى القيام عليه . ولكن عروة اعتبر المال معبوده فاستكثر من التقرب إليه وصار المال عنده غاية بعد أن كان وسيلة . ويبدوأن هذا المنزع تفسره عبارة أبى الفرج عنه :" وكان يخالط من أهل يثرب بنى النضير فيقرضونه إذا احتاج ويبايعهم إذا غنم". (١٧)

إن الخلاف بين الزوجين كان مؤذنا بالفراق لا يصلحه ما بينهما من حب متبادل لأنه كان متكررا ، يدل على ما نقول الخبر الذى رواه صاحب الأغانى عن ابن الأعرابى : " أجدب ناس من بنى عبس فى سنة أصابتهم فأهلكت أموالهم وأصابهم جوع وبؤس ، فأتوا عروة بن الورد فجلسوا أمام بيته ، فلما بصروا به صرخوا وقالوا : ياأبا الصعاليك ، أَغِثْنَا ؛ فَرَقَّ لهم وخرج ليغزوَبهم ويصيب معاشا ، فنهتْهُ امرأتُه عن ذلك لما تخوَّفَتْ مِنَ الهلاك فعصاها وخرج غازيا . فمر بمالك بن حمار الفزارى ، ثم الشمخى ؛ فسأله : أين تريد ؟ فأخبره ، فأمر له بجَزُورٍ فنحرها فأكلوا منها ، وأشار عليه مالك أن يرجع ، فعصاه ومضى حتى انتهى إلى بلاد بنى القَيْن ، فأغار عليهم فأصاب هَجْمَةً عاد بها على نفسه وعلى أصحابه ، وقال فى ذلك :

أَرَى أُمَّ حَسَّانَ الغَدَاةَ تَلُومُنِي ... تُخَوِّفُنِي الأَعْدَاءَ والنَّفْسَ أَخْوَفُ
تَقُولُ سُلَيْمَى لوأَقَمْتَ لَسَرَّنَا ... ولم تَـدْرِ أَنِّـى للمقـام أُطَـوَّفُ
لعلَّ الذِى خَوَّفْتَنَا مِن أَمَامِنَا ... يُصَادِفُهُ فـى أَهْلِـهِ المُتَخَـوِّفُ" .(١٨)

وهذا الإصرار منه جعلها تحتال بعد أن مكثت عنده بضع عشرة سنة وولدت له أولادا وهولا يشك فى أنها أرغب الناس فيه-فتقول له : لوحججت بى فأمرَّ على أهلى وأراهم.. وقالت له - وهى تفارقه - :" "ياعروة أما إنىأقول فيك وإن فارقتك الحق : والله ما أعلم امرأةً من العرب ألقت سِتْرها على بَعْلٍ خَيْرٍ مِنْكَ وأَغَضَّ طَرْفًا وأَقَلَّ فُحْشًا وأَجْوَدَ يَدًا وأَحْمَى لحقيقة... ارجع راشدا إلى ولدك وأحسن إليهم".(١٩)

إن منطقه أن يموت فى الغزوفتُخلّى للأزواج أويعود إليها بما يُغنيها عن السؤال مرفوضٌ عندها فغايتها غير غايته.

٦، ٧ جعل من سهام المَيْسِر مثلا له فى مقارعته الموت . وفوز السهم خروجه أولا. أديار البيوت : كان الموالى ومَنْ يقومون بالخدمة ينزلون فى أديار البيوت ويأكلون مافَضَلَ عن طعام السادة . يقول إذا قُتِلْتُ فلن أجزع من الموت ، لأنه مصير كل حى الذى لا يملك عن إجابته تأخيرا. وإن غَنِمْتُ وعُدْتُ من إغاراتى فسوف أُغْنِيكِ وأولادنا عن سؤال السادة والعيش على فضلات طعامهم.

تتضمن هذه الأبيات أن الصعلكة هى الفقر والعدوان على الأغنياء الذين يبخلون، وهى أَنَفَةٌ ممن كان فقيرا رافضا المهانة والجوع . ونسألك سؤالا: ما الفرق بين ما يشرحه عروة بن الورد لزوجه من حديث النفس وبين ما أقدم عليه بسطام بن قيس حين اطرد ألف ناقة من مال بنى ضبة؟! السيد كالصعلوك يستبيحان الغزووالسرقة والدافع عند السيد غير الدافع عند الصعلوك ، ولكنها الجاهلية المقابلة للإيمان عقيدة وسلوكا.

فَجُوع صيغة مبالغة على وزن فَعُول تفجع الناس كثيرا ، وهوصفة للناقة الصرماء المُذْكِر . جعل هذه الناقة مَثَلاً للداهية وأنها فى الدواهى مثل هذه فى الإبل .

الأبيات من ٨ - ١٠ تُصَوِّرُ رَدَّ زَوْجِ عُروة بن الورد على ما قاله لها مبررا عدوانه على القبائل الذى لم يستثن منه قبيلة أومكانا. ردت عليه مُنْكِرَةً حديث نفسه فقالت (لك الويلات) وسبق تفسير الويل فارجع إليه ، والعبارة إشارة إلى عدم رضائها . والاستفهام فى (هل أنت تارك ضبوءا) معناه البلاغى الالتماس والحث على ترك الإغارة على الناس براجلين وفرسان كما حثته على أن يبقى لكى يرعى ماله ويستثمره العام كله. وقد أعلنت رأيها فيما يراه من الاعتماد على كسبه من الإغارة والسلب ومثلت له ركوبه مخاطر الغَزْوِ أنه الشُّؤْمُ مُجَسَّدًا كمن يركب فى سفره ناقة قليلة اللبن لا خير فيما تلده من نسل فهى تهلكه فى سفرها ولن تأتيه بما يغذيه حين تلده . وهذه الناقة تفجع من تصل إليهم من (الصالحين) وتزل براكبها فلا خير فيها لراكبها ولا خير فيما تلده ولا خير لمن تصل إليهم . لقد فسر صاحب جمهرة أشعار العرب الصالحين أنهم (الرجال الذين يطلبون معالى الأمور) وفسرهم ابن السكيت بقوله : (الصالحون عند العرب ذووالمعروف لا ذووالدين) ونقول إنهم المؤمنون المقابلون للجاهليين، والصعلكة جاهلية مفرطة . والصالحون من عنتهم الخنساء بالهُدَاةِ فى قولها :

وإنَّ صَخْرًا لَتَأْتَمُّ الهُدَاةُ بِهِ كَأَنَّهُ عَلَمٌ فى رأسِهِ نَارُ

فعروة يقرر فيما يرويه عن زوجه أن الصعلكة عدوان على الصالحين المتألهين الهداة ، وأن الصعلكة خارجية على الشرعية ممثلة فى أعراف القبائل وأقوال الحكماء الموافقة لرسالات السماء ممثلة فى الحنيفية واليهودية والمسيحية ودعوات أنبياء العرب ؛ هود وصالح وشعيب .

قال عروة على لسان زوجه محذرة : إن إغارتك تعرضك للزلل ، إن آثارها القتل لك والمصير المخيف لنا . أدعوك باتخاذ الحيطة والحذر. البيتان ١١ و١٢ يصوران رد عروة على زوجه :

الخفض : الدعة ولين العيش . سوداء المعاصم : يريد أنها جهدت من الجهد والجدب والهزال فلم تلبس قفازين على يديها ولم تصن نفسها . أومن شدة الجوع والبرد وحضور النيران للاصطلاء . المستهنىء : طالب الهنء ، وهوالعطاء ، وهومعطوف على (ذى قرابة). زيد أبوه : يشير إلى رجل من قومه يجمعه وإياه زيد ، وهوجد عروة، لحاه الله : قَبَّحَهُ ولَعَنَهُ . الصعلوك : الفقير . المُشَاشُ:رؤوس العظام اللينة التى يمكن مضغها . المجزر:موضع الجَزْرِ . الميسِر : بكسر السين ، الذى سهلت ولادة إبله وغنمه ولم يعطب منها شيء . يريد أن هذا الصعلوك إذا ملأ بطنه عَدَّهُ غِنَى ولم يبال ما وراءه من عياله وقرابته. العريش : خيمة من خشب أوجريد. المُجَوَّرِ : الساقط .

رد عروة على زوجه قائلا إن الذى تريدينه مِنْ لِينِ العَيْشِ أَبَى عَلَيَّ تَرْكَ الغارة ودفعنى إلى طلب المغنم فى الغارات مَنْ يأتونك ليلا مِنْ ذَوِى القَرَابة من الفقراء الراغبين فى المساعدة ومعصمك الأسود الدال على أنك جهدت من الجدب والجهد والهزال والجوع وحضور النار للاصطلاء أى طلب التدفئة .

كما أبى عَلَيَّ تَرْكَ الغارة طالبوالعطاء من أقاربى أولاد عمومتى . إننى أخشى أن يطرقونى فلا يجدوا عندى ما عودتُهم من العطاء فاحفظى حياءك وأمسكيه عليك واصبرى على ما دَفَعَنا إليه فَقْرُنا .

الأبيات من ١٣ -١٧ تصور ما ينكره على الصعاليك أصحابه ، قال : قبح الله ولعن فقيرا ساقط الهِمَّة يكفيه إذا ستره ليلُه أن يتفحص طعامه بين بقايا ما أكله الأغنياء من العظام اللينة التى يمكن مضغها. إن همته الساقطة جعلته لا يرى الغنى أبعد من أن يطعمه صديق ذويسار . قبح الإله ولعن الصعلوك ساقِطَ الهِمَّةِ الذى لا يعيش إلا لنفسه فلا يفكر فى زوجه وولده ، فاذا شبع فملأ بطنه انهار يطلب النوم كأنه عريش انهار، ونام مبكرا لم تحدثه نفسه بادلاج (السير من أول الليل) ولا غزو(يكون عادة قبيل الفجر). فإذا أصبح ساقِطُ الهِمَّةِ مِنَ الصعاليك نفض عن جسمه المتعفر تُرَابَ الأرض كناية عن الفقر المُدْقِع أى ينام بلا فِراش ولا غِطاء ولا سَقف.

ويبدأ ساقط الهمة صباحه بإعانة نساء الحى فى أعمالهن إذا طلبن منه العون وكثيرا ما يطلبن حتى اذا كان وقت الضحى أصابه التعب فبرك كالبعير المُجْهَد .

الأبيات من ١٨ إلى ٢١ تصور ما يعجبه فى الصعلوك :

يرى عروة أن الصعلوك الجدير بالإعجاب والمدح هومُشْرِقُ الوَجْهِ الذى يَشِعُّ النور من بَشْرتِهِ وهونور كضوء شهاب مَنْ يَقْبَسُ النار . إشارة إلى إقباله على الحياة فغنم وطعم ولبس واطمأن .

١٩- ورأى الأغنياء أعداءه فرصدهم واختار وقت غزوهم وكر الغَزْوَ فَهُمْ يعرِفُونَه ويصيحون به يزجرونه عن غزوهم المتكرر المعروف بآثاره التى لا ينساها من جربها .

٢٠- فهم يغيرون منازلهم اتقاء لِغَزَوَاتِهِ ويبعدون عنه ، ولكنهم لا يأمنون من غزوه ، فهم ينتظرونه فى كل ساعة كما ينتظر أهل الغائب مسافرهم متى يقدم ؛ فأعينهم إليه يتشوفونه ، ليس شوقا وإنما رعبا.

٢١- إن الصعلوك المحمود بهذه الصفات إن جاءه الموت يلقه حميدا وإن يكتف بما عنده من المال عن الغزوفهوجدير بالراحة لأمنه وغناه .

الأبيات من ٢٢ إلى ٢٧ يتحدث فيها عن قيادته الصعاليك .معتم وزيد بطنان من عبس . كواسع : خيل تطرد إبلا تكسعها فى آثارها. السوام : الإبل السائمة أخراها : آخرها . المنفر : المذعور. البيض : السيوف ، الشث والعرعر : نوعان من أشجار الجبال .

المناقلة : حسن نقل القوائم فى سرعة السير. الشمط: ج (أشمط) وهوالذى خالط سواد شعره بياض ، أراد بهم الفرسان ذوى السن والتجربة . النقاب ج نقب وهوالطريق الضيق فى الجبل .

السريح : السيور تشد بها النعال . المسير: الذى جعل سيورا.

يريح : يرد. ماجد : يريد نفسه. مالى : إبلى. المقتر : الفقير

الندب : المخاطرة والمبادرة .

٢٢- يستنكر عروة أن يهلك بطنان من قبيلته عبس جوعا هما معتم وزيد - وهما جَدَّاه - فى حياته ولما يقم مبادرا مخاطرا حتى يغنيهما . فولاء عروة لقبيلته لأنه ليس من الصعاليك الخلعاء والشذاذ .

٢٣- يعلن عروة أنه سيقود الصعاليك للغِنَى فيقول ستطرد خيلنا -نحن الصعاليك - الإبل السائمة مذعورة لمن يئس من غزونا وأمننا .

٢٤- إن إغارتنا تبدأ بجولة نطاعن بالقنا أصحاب تلك الإبل السائمة تعقبها مبارزة بالسيوف اللامعة الضامرة ذات الآثار المخلدة .

٢٥- سننقل المعركة من أرض نجد وقبائلها إلى أرض ذات جبال وشجر رملى هوالشث والعرعر . إننا نحارب فى الأرض ذات الطبيعة الصلبة والأرض ذات الطبيعة الرملية .

٢٦- إن فرسانى يتميزون بخفة الحركة وبالخبرة والتجربة والسن الناضجة والعقول الراجحة وهم قادرون على احتياز الطرق الضيقة الوعرة فى جبال الحجاز .

٢٧- ويذكر ما يغنمه من الاغارة الليلية فيصف نفسه أنه ماجد كريم ويقول إن الليل يرد عليه وهويوزع ما كسبه بالإغارة على الصعاليك ، أما ماله الذى تقوم عليه أسرته فى عبس فهومال فقير .

تثير قصيدة عروة بن الورد قضية التمرد؛ أسبابه ، ومظاهره وأهدافه ، وهى قضية الحب المفقود والبحث عن حب بديل ، وهوحب فطرى مرتبط بتكوين الشخصية وهوالولاء .

رأيت أن القبيلة - عبس- تشاءمت من أبيه ؛ لأ نه هوالذى أوقع الحرب بينها وبين فزاره بمراهنته حذيفه بن بدر فى يوم الهباءة أويوم الحفر إشارة إلى حفر الهباءة وهومستنقع فى بلاد غطفان مما أدى إلى الحرب وهزيمة عبس من ذبيان ؛ والهزيمة معناها القتلى من الرجال والسبايا من النساء والغنائم من الأموال . إن التشاؤم ظلم متكرر بالقول ، وبالإشارة وبالصمت من كل أفراد القبيلة؛ فورث عروةعن أبيه ألوانا متعددة من ظلم القبيلةهى من مفردات الجاهلية.

أضف إليها مالحق بعروة من أحواله من نهد من قضاعة من ضرر يدل على الحقد ، مما أدى إلى أن هجاهم هجاء مرا . والسبب الثالث من أسباب تمرد عروة وبحثه عن الحب البديل ما حدثتنا به سيرته ، فقد كان أبوه يفضل ويقدم أخاه الأكبر عليه مع ما هومعرف من شدة احتياج الابن الأصغر إلى عطف أبيه واستغناء الابن الأكبر .

ولقد كان السبب الرابع لتمرد عروة أبعد الأسباب تأثيرا فى سلوكه ، وهوتمرده على الفقر فى أبشع صوره وهو الصعلكة ؛ فهى المرض والهزال أو الأ نيميا الحادة ، وهى المهانة المترتبة على احتياج الفقير إلى أن يبحث فى بقايا طعام ذَوِى اليَسَار عن شيء يقيم به أَوْدَه ، فالصعلوك لُغَةً :الجائع الذى لامَوْرِدَ له ولا وَزْنَ ولاعَمَل ولا

هيئة . تقول العرب : " تصعلكت الإبل: خرجت من أوبارها..." وقد رأيت عروة فى الأبيات من ١٣ إلى ١٧ يلعن ساقطى الهمة بين الصعاليك الذين رضوا لأنفسهم أن يبحثوا فى بقايا طعام ذوى اليسار عما يسد جوعهم كما تفعل الكلاب الضالة؟!

صادفت هذه الأسباب الأربعة نفسا أبية قوية متماسكة البناء فلم تأسف حين افتقدت حب القبيلة بإنكار أبيه بالتشاؤم منه، ولم تُهْزَمْ بِحِقْدِ الأخوال فواجهتهم بالعداوة فى هجاءٍ صريح مُرٍّ معبر عن موقف قوى، ولم تُصَب بالْعُقَدِ حين افتقدت عطف الأب. وبحثت عن الحب فى موطنه على أرض الواقع. اعترف عروة بن الورد أنه صعلوك يجب أن يُوقِفَ حُبَّهُ على أمثالِهِ مِنَ الصعاليك ؛ فثار على قبيلته عبس واستثنى الفقراء منها وهم (مُعْتَم) و(زيد) فاستنكر أن يموتَ أفرادُ البطنين من قبيلته جوعا دون أن يبادرالى إنقاذهم :

أَتَهْلِكُ مُعْتَمٌّ وَزَيْدٌ وَلَمْ أَقُمْ على تَنَدٍ يَوْمًا وَلِي نَفْسٌ مُخْطِرِ

خص عروة ولاءه بالفقراء من قبيلته وعادى الأغنياء منها وعبر عن عموم حبه لكل الصعاليك من كل القبائل ، كما عبر عن عموم بغضه لكل ذوى اليسار البخلاء من كل القبائل العربية ، فوجد ضالته : الحب فى صورته الفطرية أى الولاء فخص الصعاليك بولائه ورضى بهم أهلا ورضوا به قائدا فتم إجماع معاصريه واللاحقين عليه على وصفه بعروة الصعاليك .

نفس عروة الأبية القوية المتماسكة البناء سعت إلى التغيير ، ولم تسلك سبيل النفس الضعيفة التى تقنع بالحسد وهو تمنى زوال نعمة ذوى اليسار البخلاء مع القعود عن السعى للتغيير . وعاشت متبنية قضية التغيير ؛ نخطط له وتقود الفقراء لتحقيقه بالحرب، وتجعلهم يتطلعون إلى تحقيق نَمَطٍ جديد للحياة ؛ ليس كما يريد ذَوُو اليسار لها أن تكون ،وإنما كما ينبغى للنفس الأبية أَنْ تَرْضَى . والوسيلة إلى التغيير الغزو، ولا سبيل

إلى تحقيق التغيير بهذه الصورة الا باستخدام القوة والحيلة والتخطيط والقيادة التى تخص الفقراء بالحب وتجود بما تغنمه عليهم .

هذه المواجهة بين الأغنياء والفقراء من مفردات المضمون الجاهلى وهى علامة جاهلية لفقد الحب وللبخل والأثرة من جانب الأثرياء ، وللجوع والمرض والمهانة عند الفقراء وما يتولد عن ذلك من حقد على الأغنياء . لقد عالج الإسلام أسباب التمرد بفرض الزكاة وبالحث على الصدقات بما هومعروف مشهور من نصوص ، نكتفى بذكر نصين منها هما قوله تعالى : (وفى أموالهم حق للسائل والمحروم) الذاريات ١٩ وقوله سبحانه (والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) المعارج ٢٤ .

ولا نرى مُبَرِّرًا لربط سلوك عروة بن الورد بالثورات الاجتماعية المعاصرة فما فعله عروة تصرف جاهلي فى مجتمع جاهلى وقد أوجد الإسلام له حلولا جذرية جعلت الصعلكة من مفردات جاهلية ما قبل البعثه ولا امتداد لها فى ظل الإسلام. (٢٠)

القصيدة متميزة بفكر محدد واضح،وعرض مُشَوِّقٍ مُتَرَابِطٍ مؤثر ، ولغة قريبة من النفس سهلة أقرب إلى الارتجال منها إلى الشعر الحولى المحكك .

والفكر المحدد الواضح هووحدة الموضوع من استهلال القصيدة إلى خاتمتها ؛ فقد استهلها بخطابه زوجه أن تخفف من لومها له وأن تطمئن إلى حرصه على تأمينهامما يقلقها (الأبيات من ١إلى ٧) وعرض رد زوجه عليه (الأبيات ٨،٩،١٠) ثم فسر لزوجه لماذا أقدم على الغزو(البيتان ١١،١٢) وأردف ذلك بذم الصعلوك ضعيف الهمة الذى رضى لنفسه الهوان (الأبيات من ١٣-١٧) وختم القصيدة بمدح الصعلوك الرافض للهوان المحقق لنفسه حياة تليق بالإنسان ، وهى الحياة التى رضيها للصعاليك وقادهم إلى تحقيقها بالعدوان على(أعدائهم!) الأغنياءفى كل مكان من شبه الجزيرة العربية.

وهو- أعنى الفكرالمحدد الواضح - وحدة الجوالنفسى وقد حدثناك عن افتقاد عروة الحب فى حياته وبحثه عن حب خص به الصعاليك وتمثل فى إكرامهم بحيث نافس حاتم الطائى فى جوده كما تمثل فى التخطيط لحياة أكرم لهم وذم ذوى الهمم الساقطة من الصعاليك ، وقيادتهم وتوزيع الغنائم عليهم وأهم ما يمثل وحدة الجوالنفسى فى القصيدة احتجاج عروة للتغيير وقد شمل كل أبيات القصيدة بالخبر والإنشاء والتلميح والتصريح والتمثيل.

أما العرض المشوق المترابط فراجع إلى الحوار بصيغة المخاطب فى الأبيات العشرة الأول ، والذى عدل عنه فى البيت الحادى عشر ، وعاد إليه فى البيت الثانى عشر وهذه فائدة الالتفات .

ولعلك وقفت فى القصيدة على ديباجة منطلقة بسيطة مختلفة عن ديباجتى سحيم بن وثيل وعبد الله بن عنمه وهما من الشعرالحولى المحكك . مما يشعرنا أننا أمام لونين من الأدب الجاهلى ؛ أدب السادة المترفين المتأنقين الذين يكثرون من مراجعة أشعارهم ، وأدب الفقراء المنطلقين فى بساطة مع أفكارهم ومشاعرهم . والأمر فى المقايسة بين هذين اللونين من الأدب لا يقتصر على المفردات والتراكيب والصور فقط وإنما يتعدى هذه الأمور إلى مكانة المرأة وأسلوب الحياة ، ولهذه المقايسة مكان آخر ، يكفينا هنا أن نقرر أن سلمى زوج عروة بن الورد شريكته فى القرار يحاورها وتحاوره، تختلف معه فى الرأى وتلومه وتحاول أن تقنعه بوجهة نظرها ويقتنع برأيها ويتلطف حين يريد أن يوصل لها قراره المخالف لرأيها كما يحدث الآن بين زوجين راقيين . ما نثبته لهما أسلوب الحوار فى أمور الحياة الزوجية . وما نثبته لها الحيلة فى اتخاذ القرار والموقف إلا نسانى الذى أعلنت فيه قرارها ؛ الفراق مع الحب لأنها ليست شريكة فى إتخاذ القرار ، فليتحمل وحده سبب عناده ولن يعيده إلى صوابه سوى قيامه وحده بتربية أولاده.

سلوك عروة وقرار زوجه يطرح قضية جاهلية معاصرة هى قضية الأغتراب وصلتها بما يقابلها وهوالولاء . أشار صاحب الأغانى إلى إدراك السلف هذه الظاهرة فى شعر عروة فقال: "أخبرنى أحمد بن عبد العزيز ،قال حدثنا عمر بن شبه قال أخبرنا إبراهيم بن المنذر قال : حدثنا معن بن عيسى قال: سمعت أن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب قال لمعلم ولده : لاتروهم قصيدة عروة بن الورد التى يقول فيها :

دَعِينِي لِلغِنَى أَسْعَى فإنِّي .. رأيتُ الناسَ شرهم الفقير

ويقول : إن هذا يدعوهم إلى الاغتراب عن أوطانهم "

ألا ترى معى أن خبرا ينقله خمسة من الرواة أهل الدراية جدير بأن يدرس؟! فإذا أضفنا إليه ما وجدناه فى النص من إعلان عداوته لكل أمته ووعيده بالإرهاب للآمنين الذين وصفتهم زوجه أنهم من الصالحين ، وأضفنا هذه العبارة التى ذكرها أبوالفرج عنه : " وكان يخالط من أهل يثرب بنى النضير فيقرضونه إن احتاج ويبايعهم إذا غنم" ، وتذكرنا حديث الجاحظ عن الحسد المتقدم – أصبح لزاما علينا أن نطرح قضية ولاء عروة بن الورد على بساط البحث وعرفنا قيمة نهى عبد الله بن جعفر معلم ولده عن رواية بعض شعر عروة وهذه القصيدة المنهى عن روايتها تشكل ظاهرة فى شعره يجب أن تدرس ونصل فيها إلى قرار مؤيد بالأدلة .

المفضلية (١)

قال تَأَبَّطَ شَرًّا

سُلطانُ عَالَمِ المُثْلِ على عَالَمِ الوَاقِعِ

١ – ياعِيدُ مَالَكَ مِنْ شَوْقٍ وإيراقِ
وَمَرِّ طَيْفٍ على الأَهْوَالِ طَرَّاقِ

٢ – يَسْرِى عَلى الأَيْنِ والحَيَّاتِ مُحْتَفِيًا
نَفْسِى فِدَاؤُكَ مِنْ سَارٍ على سَاقِ

٣ – إنِّىٓ إذا خُلَّةٌ ضَنَّتْ بنائِلِهَا
وأَمْسَكَتْ بضعيفِ الوَصْلِ أحذَاقِ

٤ – نَجَوْتُ منْهَا نَجَائِى مِنْ بَجِيلَةَ إذْ
أَلْقَيْتُ ليلةَ خَبْتِ الرَّهْطِ أروَاقِى

٥ – ليلةَ صَاحُوا وأَغْرَوْا بِى سِرَاعَهُمُ
بالعَيْكَتَيْنِ لَدَى مَعْدَى ابنِ بَرَّاقِ

٦ – كَأَنَّمَا حَثْحَثُوا حُصًّا قَوَادِمُهُ
أوأُمَّ خِشْفٍ بِذِى شَثٍّ وطُبَّاقِ

٧ – لا شَىْءَ أَسْرَعُ مِنِّى ليس ذاعُذُرٍ
وذَا جَنَاحٍ بجَنْبِ الرَّيْدِ خَفَّاقِ

٨ – حَتَّى نَجَوْتُ ولَمَّا يَنْزِعُوا سَلَبِى
بِوَالِهٍ من قَبِيضِ الشَّدِّ غَيْدَاقِ

٩ – ولا أَقُولُ إذا ما خُلَّةٌ صَرَمَتْ
ياوَيْحَ نَفْسِى مِنْ شَوْقٍ وإشْفَاقِ

١٠- لكنَّما عِوَلِي إنْ كُنْتُ ذَا عِوَلٍ
على بَصِيرٍ بكَسبِ الحمدِ سَبَّاقِ

١١- سَبَّاقِ غَاياتِ مَجدٍ فى عَشِيرَتِهِ
مُرَجِّعِ الصَّوْتِ هَذَّا بينَ أرْفَاقِ

١٢- عارِى الظَّنَابِيبِ ، مُمْتَدٌّ نَوَاشِرُهُ
مِدْلَاجِ أدْهَمَ واهِى الماءِ غَسَّاقِ

١٣- حَمَّالِ أَلْوِيَةٍ ، شَهَّادِ أَنْدِيَةٍ
قَوَّالِ مُحْكَمَةٍ ، جَوَّابِ آفَاقِ

١٤- فذَاكَ همِّى وغَزْوِى أستَغِيثُ بِهِ
إذا استغَثْتَ بضَافِى الرَّأْسِ نَغَّاقِ

١٥- كالحِقْفِ حَدَّأَهُ النَّامُونَ قُلْتُ لَهُ:
ذُوثَلَّثَيْنِ وذُوبَهْمٍ وأَرْبَاقِ

١٦ - وقُلَّةٍ كسِنَانِ الرُّمْحِ بارِزَةٍ
ضَحْيَانَةٍ فى شُهُورِ الصَّيْفِ مِحْرَاقِ

١٧ - بادَرْتُ قُنَّتَهَا صَحْبِى وما كَسِلُوا
حتى نَمَيْتُ إليها بَعدَ إشْرَاقِ

١٨ - لا شىءَ فى رَيْدِهَا إلا نَعَامَتُهَا
منهَا هَزِيمٌ ومنها قَائِمٌ باقِ

١٩ - بِشَرْتَةٍ خَلَقٍ يُوقَى البَنَانُ بها
شَدَدْتُ فيها سَرِيحًا بَعْدَ إطْرَاقِ

٢٠- بَلْ مَنْ لِعَذَّالَةٍ خَذَّالَةٍ أَشِبٍ
حَرَّقَ باللَّـوْمِ جِـلْدِى أَىَّ تَحْرَاقِ

٢١ - يَقُولُ أهلكْتَ مَالًا لوقَنِعْتَ بِهِ
مِنْ ثَوْبِ صِدْقٍ ومِنْ بَزٍّ وأَعْلَاقِ

٢٢ - عاذِلَتِى إنَّ بَعْضَ اللَّوْمِ مَعْنَفَةٌ
وهَلْ مَتَاعٌ وإنْ أَبْقَيْتُهُ باقِ

٢٣ - سَدِّدْ خِلَالَكَ مِنْ مَالٍ تُجَمِّعُهُ
حتَّى تُلَاقِى الذى كُلُّ امْرِئٍ لَاقِ

٢٤ - إنِّى زَعِيمٌ لَئِنْ لَمْ تَتْرُكُوا عَذَلِى
أَنْ يَسْأَلَ الحَىَّ عَنِّى أَهْلَ آفَاقِ

٢٥ - أَنْ يَسْأَلَ القَوْمُ عَنِّى أَهْلَ مَعْرِفَةٍ
حَتَّى تُلَاقِى الذى كلُّ امْرِئٍ لَاقِ

٢٦ - لَتَقْرَعِنَّ عَلَىَّ السِّنَّ مِنْ نَدَمٍ
إذا تَذَكَّرْتَ يَوْمًا بَعْضَ أَخْلَاقِى

الشاعر تأبط شرا هوثابت بن جابر بن سفيان بن عدى بن كعب بن حرب بن تيم بن سعد بن فهم بن عمروبن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار. وسمى (تأبط شرا) لأنه تأبط سيفا وخرج ، فقيل لأمه : أين هو؟ فقالت : تأبط شرا وخرج ! وكان أحد لصوص العرب المغيرين قرينا للشنفرى الأزدى وعمروبن براق ، وكانوا ثلاثتهم من

العدائين ، الذين يعدون على أرجلهم فلا يدركهم الطالب ، بل كانوا أعدى العدائين في العرب ، لم تلحقهم الخيل . وقد افتخر تأبط شرا بهذا فى البيت السابع .

موضوعات القصيدة:

١ - استهلال وصف فيه همومه (الأبيات من١:٣) .

٢ - وصف هروبه من أسر بجيلة مع رفيقيه عمروبن براق والشنفرى . (الأبيات من ٤ إلى ٨) .

٣ - وصف للسيد الذى يركن إليه . (الأبيات من٩ : ١٣).

٤ - موازنة بين السيد الماجد والراعى الخامل(البيتان١٤ و١٥)

٥ - فخر تأبط شرا .

ا- بتجشمه الأخطار (الأبيات من ١٦ إلى ١٩)

ب - وبكرمه وتنديده بلائمه على كرمه (الأبيات من ٢٠ إلى ٢٦)

الشرح:

حديثنا عن أسباب تمرد عروة بن الورد وبحثه عن حب فطرى بديل عن الحب المفقود مدخل لدرس كل صعلوك ؛فالصعاليك فى حقيقتهم خوارج على مجتمعاتهم ، ابتدعوا لأنفسهم ولاء وجدناه فى نص عروبن الورد متمثلافى التوجيه الفكرى والقيادة العسكرية للصعاليك ، وهوفى نص تأبط شرا متمثل فى فى اشتراكه مع صاحبيه فى العدوان على بجيلة وفى الأسر عندها وفى الهرب منها . وقضية الولاء تربط موضوعات القصيدة ، فولاؤه لصاحبيه واشتراكهم جميعا فى الغزو مدخل لحياة يصيرون بها سادة ، على هذا الولاء اجتمعوا .

البيتان ١،٢ العيد: ما اعتادك من هم أومرض أوحزن أوفكر.... والعود ، والعيادة ، والعوادة : انتياب الشيء كالاعتياد ، والرجوع وزيارة المريض . و(رجع عودا على بدء) : لم ينقطع ذهابه حتى وصله برجوعه. والطيف : الخيال الطائف فى المنام .

والأين : الإعياء، والحية ،ومصدر آن يئين أى حان . وآن أينك : حان حينك .
واحتفى: مشى حافيا بغير خف ولا نعل.
طراق : صيغة مبالغة من طرقنا بمعنى أتانا ليلا . الإيراق : مصدر آرقه يؤرقه وهوامتناع النوم. يسري: السري المشى ليلا.

استهل تأبط شرا قصيدته بإبداء تعجبه من مشاعره المعاودة له المسعدة لنفسه المصورة ما يحلم به من حياة أفضل من واقعه المرير، فهى تألفه ويألفها ، وتشتاق إليه فترحل معه أينما يذهب ، ويسهر لها ويفديها بنفسه لأنها تحرص على صحبته لا يثنيها عن ذلك ماتواجهه من التعب الشديد والفقر الظاهر والمخاطر المؤكدة ، فهى حافية القدمين فى مكان تكثر فيه الحيات وبليل موحش ، مع صاحب تحيط به الأهوال وهويعد العدة لغزوقبيلة بجيلة . إن هذه الظروف تعنى أن أحلام الشاعر وخيالاته التى تطيف به هى نعم الصديق ونعم الأنيس فى المكان والزمان الموحشين .

الخلة : الصداقة ، وتقال للصديق وتطلق على المذكر والمؤنث والمثنى والجمع ، وأنث الضمائر من أجل اللفظ ، النائل : ما ينال .
بضعيف الوصل : بحبل ضعيف . الأحذاق : المتقطع .
بجيلة : القبيلة التى أسرته . الخبت: اللين من الأرض .
الرهط: موضع ألقيت أرواقى : استفرغت مجهودى فى العدو

المعنى : إذا ضن عنى صديقى بعطائه ، وكان وصاله ضعيفا أحذاقا أى متقطعا نحوت منه كنحائى من بجيلة . وقد أحسن الشاعر الا ننتقال إلى موضوع القصيدة الأصلى بالبيت الثالث الذى كرر مضمونه وبعض ألفاظه فى البيت التاسع . والرابط بين الأجزاء الثلاثة أن الشاعر له أحلامه وطموحاته التى تلازمه فى حله وترحاله وتدفعه إلى الانتقال من حال الفقر والمذلة والمهانة إلى حال السيادة بالغزوالذى لايعد فى نظره غاية ولكنه وسيلة إلى غاية هى كسب الحمد والسيادة بمظاهرها من القيادة

العسكرية والريادة الفكرية والكرم والشهرة التى تجوب الآفاق بالخلق الحميد . هذا هومضمون الأبيات من ٣ إلى ٢٦ وهومتصل كما ترى بالاستهلال فى البيتين الأول والثانى مما يؤكد على إدراك تأبط شرا وحدة القصيدة موضوعا وجوا نفسيا عبر عنه بالصورة البيانية.

٥- العيكتان . موضع . معدى : مصدر ميمى من العدو، أواسم مكان من عدا - يعدو. وابن براق هوعمرو.وهو والشنفرى صديقا تأبط شرا، وكانا معه ليلة انفلاته من أسر قبيلة بجيله .

٦- حثحثوا : حركوا من الحث . والحص : ج أحص ، وهوما تناثر ريشه وتكسر . يشير إلى الظليم ، وهوذكر النعام . والقوادم ما ولى الرأس من ريش الجناح .

الخشف : ولد الظبية . الشث والطباق : نبتان طيبا المرعى ، يضمران راعييهما ويشدان لحمهما .

٧ - العذر : ج عذره ، وهى ما أقبل من شعر الناصية على وجه الفرس . ذا عذر كناية عن موصوف هوالفرس . وذوالجناح كناية عن الطائر . والريد : الشمراخ الأعلى من الجبل إشارة إلى العقاب ، وهومن سباع الطير يسكن أعالى الجبال وهوأسرع طيرانا من جارح السهل وهوالنسر . و(ليس) فى هذا الموضع أداة استثناء تترك فيه موحدة مع التثنية والجمع ، وفى المؤنث بغير علامة التأنيث .

٨ - السلب : ما يسلب فى الحرب . والواله :الذاهب العقل . والشد القبيض : الجرى السريع . والغيداق : الكبير الواسع . من الغدق : وهوالمطر الكثير .

المعنى : أنجوبنفسى من الوصال الضعيف المتقطع كما نجوت من قبيلة بجيلة حين أسرتنى مع صاحبى عمروبن براق والشنفرى اللذين صحبانى فى الغزووفى العدومن الأسر، لقد تصايحوا وأغروا سراعهم كى يلحقوا بنا إلى العيكتين اسم المكان الذى اتجه إليه عمروبن براق .

لقد استفرغت مجهودى فى العدوواستفرغ سراعهم مجهودهم فى العدووراءنا فصرت كأنك ترى ولد الظبية يعدوليلحق بذكر النعام وهما مضربا المثل فى سرعة العدو. وهما مؤهلان للعدوللمرعى الطيب الذى يغمرها ويؤهلهما لهذه المهمة .

إننى سريع العدولا يلحق بى إلا الفرس والعقاب . لقد نجوت من أسر بجيلة قبل أن يستردوا ما أخذته منهم . لقد جريت مسرعا كالواله الذى يكاد عقله يذهب من سرعة الهرب .

٩، ١٠ ،١١ إننى لا آسى على تقطع وصال ضعيف ، لا أخاف منه ولا أشتاق إليه ، ولكننى آسف إن كان لا بد لى أن آسف وأحرص على شىء - على تقطع وصال رجل كامل الخلق حريص على المدح سباق إلى الخير ممدوح فى عشيرته يصيح آمرا ناهيا فى أبناء عشيرته ويصدر عن رأيه فيما يأمر وينهى .

١٣،١٢ - الظنابيب : ج ظنبوب وهوحرف عظم الساق ، جعلها عارية لهزالها ، والعرب تمدح الهزال وتهجوالسمن . النواشر: عروق ظاهر الذراع . مدلاج : كثير سفر الليالى بطولها . الأدهم : الليل . واهى الماء : مطره شديد، سحابه لا يمسك الماء . الغساق : الشديد الظلمة ، وهما نعتان للأدهم . المحكمة : الكلمة الفاصلة . جواب آفاق : صاحب أسفار وغزو.

المعنى : يستمر تأبط شرا فى وصف السيد الماجد الذى يتخذه مثلا أعلى يترسم خطاه ويعتمد عليه فيقرن بين صفاته الخلقية والخلقية؛ فهونحيل القامة بارز عروق الذراع كناية على اعتماده على قوته فى الحرب والسلم ، لا يشبه عما اعتزم شىء فتراه يسافر الليالى بطولها لا يصرفه ظلام شديد أومطر غزير . يكثر من الغزو ويحمل راية عشيرته ، وكثيرا ما تراه وسط أندية السادة الحكماء ، وتؤثر عنه كثيرا الكلمات الفاصلة بين المتخاصمين ، وهوصاحب أسفار وغزوات.

١٤،١٥ غزوى : مقصدى ،من الغزووهوالقصد. ضافى الرأس : كثير الشعر . نغاق كنعاق لفظا ومعنى ، ونعاق رواية.

الحقف : ما أعوج من الرمل . (حدأه النامون) النامون من نمى صعد وارتفع أى جعلوه صلبا بدوسهم إياه وصعودهم عليه .

الثلة : القطعة من الغنم . والبهم : أولاد الشاة. والأرباق : ج ربق ، وهوحبل يجعل كالحلقة تشد به صغار الغنم لكنها لا ترضع.

المعنى : اعتمادى ومقصدى أومثلى الأعلى هوالسيد الماجد الذى ذكرت لك خلقه وخلقه وهوالذى أفزع إليه عند الحاجة إذا اعتمدت على راعى غنم غزير الشعر كثير الصياح بلا طائل وكأنه غراب متلبد الشعر كناية عن الوسخ الذى يشمل جسمه وعدم استعماله الماء وهذه من صفات العبيد وليست من صفاته السادة . فتلبد شعره شبيه بالرمل المعوج الذى داس عليه العابرون فجعلوه صلبا . أقول لهذا الراعى مالك وللحرب ! أنت ترعى الأغنام صغارها وكبارها ولا شأن لك بالحرب .

رأيت أن تأبط شرا ربط بين الطائف والغزووالسيادة واتخذ لنفسه مثلا أعلى هوالسيد الماجد فى خلقه وخلقه . وتسامى على راعى الغنم . ولاتنس أن راعى الغنم عنده مورد رزق ومعتمد فهوأيسر حالا من الصعلوك وأعلى منه رتبة . ولكن الطموح والقوة والحيلة والغزووأسباب جعلت تأبط شرا يسعى لكى يحقق لنفسه السيادة . وهذا ما يعبر عنه فى الأبيات التالية :

١٦-١٩ القلة :أعلى الجبل . ضحيانه: بارزة للشمس . محراق : يحرق من فيها. القنة والقلة بمعنى ، أراد أعلى جزء من الجبل . نميت : ارتفعت. الريد : أعلى الجبل. النعامة : خشبات بأعلى الجبل يأوى إليها الربيئة، وهوالعين والطليعة فى القتال . منها: يعنى من خشبات النعامة هزيم : متكسر . بشرته خلق : صعدت إلى هذه القنه بنعل ممزقة. السريح : للسيور تشدبها النعل .

الإطراق : أن يجعل تحت النعل مثلها .

المعنى عاد تأبط شرا إلى موضوع البيت الثانى وهوالطيف الذى يسرى على الأيمن والحيات محتفيا أى الذى يصحبه وهويرصد حركات من يعد لغزوهم فوصف إعداده للغزوبقوله رب مكان مدبب كسنان الرمح فى أعلى الجبل بارز للشمس يحرق من يرتقيه جهدت وصحبى فى الصعود إلى أعلى جزء منه ليلا وسبقتهم إليه بعد أن أشرقت الشمس وليس فى هذه القنه العالية إلا خشبات يتخفى فيها الربيئة. من تلك الخشبات ما صار حطاما ومنها ما يصلح للتخفى . صعدت إلى هذه القنة بنعل ممزقة جعلت تحتها مثلها وشددتهما بالسيور لوقاية أصابع قدمى من الصخور المدببة بأعلى الجبل.

٢١ - ٢٦ بل ، للاضراب الا نتقالى . العذالة : الكثير العذل ، الخذالة: الذى يكثر خذلان صاحبه والتاء فيهما للمبالغة .

الأشب : المخلط المعترض. ثوب صدق: مقابل ثوب سوء . عنى به الجيد. والبز: الثياب أوالسلاح أومتاع البيت . الأعلاق : كرائم الأموال . زعيم : كفيل، ضمين . الخلال: الخصال .

المعنى : دعك من حديث الشوق والأرق والغزووالسيادة وأعنى على صاحبى المخلط المعترض كثير العذل، مستديم التثبيط لعزيمتى، واقر اللوم على كرمى. لقد أبت نفسى دعوته لى للبخل وسترت آثارها ولكنها طفحت على جلدى وحرقته أى تحراق.

إن لائمى يحسب جودى بالمال إهلاكا له، ويدعونى إلى الاحتفاظ بمالى ليبدوعلى جسمى ثيابا وسلاحا، وعلى بيتى فرشاوتحفا .أليست هذه دعوة إلى البخل ؟ يا عاذلى إن لومك شديد الوطأة على نفسى، ولن يخلد مال إن وافقتك وبخلت به ولم أنفقه ، ولكن الذى يبقى ذكره هوالمعروف . إن المال الذى يجمعه صاحبه ينبغى أن يبذله للمحتاجين حتى يعرف بسداد الخصال ، فلا أحد يبقى ويخلد وإنما الذى يبقى

عمله وكرمه . إننى كفيل أن أسود بمعروفى ويتردد ذكرى فى الآفاق بكرمى ولن يصرفنى عن كرمى عذل .

أيها العاذل المعنف لى على كرمى إننى على ثقة أنك ستندم على تعنيفك لى على كرمى فما يبقى من الإنسان خلقه لاماله ، وأخلاقى هى الخالدة .

تعقيب : أدركت أن تأبط شرا اتخذ من أحلامه صديقا يخاطبه ويعبر عن حبه له ، وعرفت أن الصعاليك خرجوا على مجتمعاتهم لأنهم أفتقدوا الحب والكرم والسيادة فحلموا بعالم تتحقق هذه المعانى فيه، وسعوا إلى تحقيق أحلامهم بالغزوباعتباره وسيلة.

وكانت جماعات الصعاليك يتحقق فيها الحب والصداقة بصورة يندر أن تتحقق بها عند غيرهم، رأينا هذا فى علاقة عروة بن الورد بأصحابه وتراها فى صلة تأبط شرا بابن أخته الشنفرى وبصديقهما عمروبن براق.

يشترك الصعاليك فى إرادة التغيير والسعى إليه، وفى الاعتداد بالنفس ، وتنمية الملكات الخاصة، وتحمل المشاق ومغالبة الظلم والبخل اللذين عانوا منهما بالكرم الذى استعانوا عليه بما حصلوا عليه من الغزو. وقد وجدنا حديثا لعروة بن الورد عن القيم وهذا تأبط شرا يكمله بحديثه عن الصديق الصدوق وعن السيد الماجد وهومثله الأعلى . فتش فى أبيات القصيدة عما يدل على اعتداد تأبط شرا بنفسه فستجد أن عدد الأبيات التى تعالج هذا الموضوع تزيد عن ثلث القصيدة هى الأبيات أرقام ٣،٩،١٦- ١٩،٢٥،٢٦ .إذا حللتها فستقول إننى أمام إنسان مكتمل الشخصية وصف بأنه صعلوك ويدل بيانه وفعله على أنه أمير . لا تذكر الغزوأنه سرقة بالإكراه فهذا حكم إيمانى ونحن ندرس الأدب الجاهلى والغزوسمة ذلك الأدب اشترك فيها بسطام بن قيس السيد كما اشترك فيها تأبط شرا مع غيره من الصعاليك .

أدرك تأبط شرا مقومات الوحدة العضوية فى القصيدة فأحسن الاستهلال كما رأيت فى البيت الأول، وبرع فى الا نتقال فى البيت الثالث حين ربط بين هروبه من الوصل المتقطع وهروبه من أسر بجيلة وانتقل فى البيت التاسع بأنه لا يأسى على تقطع وصال ضعيف أساه على تقطع وصال رجل كامل الخلق حريص على المدح .ثم انتقل إلى الحديث عن العذالة الخذالة ليدل به على حرصه على تحقيق مكرمة الجود بما ملك ؛ فهولم يخرج عن الجماعة ولم يقم بالغزوإلا ليحقق فضيلة الجود ولم يخرج إلا على الأغنياء البخلاء ، فالقصيدة تمثل سلطان القيم الخلقية على عالم الواقع عند الشاعر .

الأصمعية (٢٨)

قال دُرَيْدُ بنُ الصِّمَّةِ يَرْثى أَخاهُ عبدَ اللهِ

١ – أَرَثَّ جَدِيدُ الحَبْلِ مِنْ أُمِّ مَعْبَدِ
بعَاقِبَةٍ وأَخْلَفَتْ كُلَّ مَوْعِدِ

٢ – وبانَتْ ولَمْ أُحْمِدْ إليكَ جوارَها
ولم تَرْجُ فينا رِدَّةَ اليومِ أوغَدِ

٣ – أعاذِلَ إنَّ الرُّزْءَ فى مِثْلِ خَالِدٍ
ولا رُزْءَ فيمَا أَهْلَكَ المَرْءُ عن يَدِ

٤ – وقُلْتُ لعرَّاضٍ وأصحابِ عارِضٍ
ورَهْطِ بَنِي السَّوْدَاءِ والقَوْمُ شُهَّدِى

٥ – عَلَانِيَةً : ظُنُّوا بألْفَىْ مُدَجَّجٍ
سَرَاتُهُمُ فى الفارِسِيِّ المُسَرَّدِ

٦ – أَمَرْتُهُمُ أَمْرِى بمُنْعَرَجِ اللِّوَى
فلَمْ يَسْتَبِينُوا الرُّشْدَ إلا ضُحَى الغَدِ

٧ – فَلَمَّا عَصَوْنِي كُنْتُ مِنْهُم وقد أَرَى
غَوَايَتَهُمْ وأنَّنِى غيرُ مُهْتَدِ

٨ – وما أَنَا إلا مِنْ غَزِيَّةَ إنْ غَوَتْ
غَوَيْتُ وإنْ تَرْشُدْ غَزِيَّةُ أَرْشُدِ

٩ – وإنْ تُعْقِبِ الأَيَّامُ والدَّهْرُ تَعْلَمُوا
بَنِي قَارِبٍ أَنَّا غِضَابٌ بِمَعْبَدِ

١٠ – تَنَادَوْا فَقَالُوا : أَرْدَتِ الخَيْلُ فَارِسًا
فقلتُ أَعبدُ اللهِ ذَلِكُمُ الرَّدِي

١١ – وإنْ يَكُ عبدُ اللهِ خَلَّى مَكَانَهُ
فما كانَ وَقَّافًا ولا طَائِشَ اليَدِ

١٢ – ولا بَرَمًا إذا الرِّياحُ تَنَاوَحَتْ
بِرَطْبِ العِضَاهِ والضَّرِيعِ المُعَضَّدِ

١٣ – كَمِيشُ الإِزَارِ، خارِجٌ نِصْفُ سَاقِهِ
صَبُورٌ على العَزَّاءِ، طَلَّاعُ أَنْجُدِ

١٤ – رئيسُ حُرُوبٍ لا يَزَالُ رَبِيئَةً
مُشِيحًا على مُحْقَوْقِفِ الصُّلْبِ مُلْبَدِ

١٥ – صَبُورٌ على رُزْءِ المصائِبِ حافِظٌ
مِنَ اليَوْمِ أَدْبَارَ الأَحَادِيثِ فى غَدِ

١٦ – صَبا ماصَبَا حتَّى عَلَا الشَّيْبُ رَأْسَهُ
فَلَمَّا عَلَاهُ قال للبَاطِلِ : ابْعُدِ

١٧ – وهَوَّنَ وَجْدِى أننى لم أَقُلْ لَهُ
كَذَبْتَ ، ولم أَبْخَلْ بما مَلَكَتْ يَدِى

١٨ – وكُنْتُ كَأَنِّى واثِقٌ بِمُصَدَّرٍ
يُمَشِّى بأكنافِ الجبيب فمَحْتِدِ

١٩ – غَدَاةَ دَعَانِى والرِّمَاحُ يَنُشْنَهُ
كوَقْعِ الصَّيَاصِى فى النَّسِيجِ المُمَدَّدِ

٢٠ – وكُنْتُ كَذَاتِ البَوِّ رِيعَتْ فَأَقْبَلَتْ
إلى جِذَمٍ مِنْ مَسْكِ سَقْبٍ مُجَلَّدِ

٢١ – فَطَاعَنْتُ عنهُ الخَيْلَ حتى تَبَدَّدَتْ
وحتَّى عَلَانِي حَالِكُ اللَّوْنِ أَسْوَدُ

٢٢ – طِعَانَ امْرِئٍ آسَى أَخَاهُ بِنَفْسِهِ
وأَعْلَمُ أنَّ المَرْءَ غَيْرُ مُخَلَّدِ

٢٣ – وهَوَّنَ وَجْدِى أَنَّمَا هُوَ فَارِطٌ
أَمَامِى ، وأَنِّى وَارِدُ اليومِ أوغَدِ

٢٤ – وغارةٍ بين اليَوْمِ واللَّيْلِ فَلْتَةٍ
تَدَارَكْتُهَا رَكْضًا بِسِيدٍ عَمَرَّدِ

٢٥ – سَلِيمِ الشَّظَا عَبْلِ الشَّوَى شَنِجِ النَّسَا
طَوِيلِ القَرَا نَهْدٍ أَسِيلِ المُقَلَّدِ

٢٦ – ويُخْرِجُ مِنْهُ صَرَّةُ القَوْمِ مَصْدَقًا
وطُولُ السُّرَى دُرِّىَّ عَضْبٍ مُهَنَّدِ

الشاعر :

هودُرَيْدُ بنُ الصِّمَّةِ. واسم الصِّمَّة معاوية بن الحارث بن معاوية بن بكر بن علقة ، ويقال علقمة بن جداعة بن غزية بن جشم بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور ابن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان . وأمه ريحانة بنت معد يكرب ، أخت عمرو بن معديكرب . شاعر فحل مخضرم . وضعه الأصمعى فى طبقة النابغة الذبيانى ، وقال إنه فى بعض شعره أشعر من النابغة . وهوأحد الشجعاء المشهورين وذوى الرأى فى الجاهلية . كان سيد بنى جشم وفارسهم وقائدهم . غزا نحومائة غزوة ما أخفق فى

واحدة منها ، وأدرك الإسلام فلم يسلم بل خرج يوم حنين مظاهر اللمشركين فقتل يومئذ على شركه. يقال إنه عاش نحوا من من مائتى سنة. (٢١)

واستهلال القصيدة يثير قضية موقف دريد بن الصمة خاصة والسادة فى الجاهلية عامة من المرأة .

كان دريد بن الصمة قد خطب الخنساء ، وهى تماضر بنت عمروبن الشريد ، وقال فيها :

حَيُّوا تُمَاضِرَ وارْبَعُوا صَحْبِى وقِفُوا فإنَّ وُقُوفَكُم حَسْبِى
أَخْنَاسُ قَدْ هَامَ الفُؤَادُ بِكُمْ وأَصَابَهُ بَلْ مِنَ الحُبِّ
ما إنْ رَأَيْتُ ولا سَمِعْتُ بِهِ كاليومِ طَالِبَ أَيْنُقٍ جُرْبِ
مُتَبَذِّلاً تَبْدُو مَحَاسِنُهُ يَضَعُ الهِنَاءَ مَوَاضِعَ النَّقْبِ

وقد ردته(٢٢) ونستنتج أنها وجدت فيه غلظة وأنه مشرك ولا يرجى شفاؤه من شركه، وقد كانت من المؤمنين برسالات السماء لقولها فى أخيها صخر :

وإنَّ صَخْرًا لَتَأْتَمُّ الهُدَاةُ بِهِ كأَنَّهُ عَلَمٌ فى رَأْسِهِ نَارُ

فالإمامة والهداية إشارتان واضحتان إلى إيمانها برسالات السماء، وقد أسلمت وحسن اسلامها كما نعلم . وما يعنينا هنا هوصلة الإيمان باحترام المرأة ومقابل ذلك وهوصلة الشرك بامتهانها . وما تثيره هذه القصيدة فى الرثاء التى تفردت فى أدبنا العربى كله باستهلالها بالنسيب .

قال ابن قتيبه :" قال دريد بن الصمة فى امرأته ــ وقد ضربها بالسيف ليقتلها فسلمت ــ :

أَقَرَّ العَيْنَ أَنْ عُصِبَتْ يَدَاهَا وما إنْ تُعْصَبَانِ عَلَى خِضَابِ
وأَبْقَاهَا أَنَّ لَهُنَّ جِنًّا وَوَاقِيَةً كَوَاقِيَةِ الكِلَابِ

يقال إن على الكلاب واقية من عبث الصبيان والسفهاء بها"(٢٣).

– أنكر دريد على نفسه سعادتها الخفية أن شلت يداه عن الفتك بزوجه ورفض إرجاع ذلك إلى الحب ، فالحب عنده ضعف ، وهويقر أنه يفتك بالرجل كما يفتك بالمرأة !؟ وأرجع عجزه عن الفتك بزوجه إلى سبب آخر غير الحب ، فليكن العفريت من الجن المصاحب لكل إمرأة هوالمسؤول عن الضعف الذى اعتراه ! العفريت يقى المرأة من الضرر كما تقى الجان الكلاب من عبث الصبيان !؟

هل يقرن عاقل أمه أوحبيبته أوزوجه أو ابنته بالكلبة؟! وأى عاقل ذلك الذى يحتج على العدوان على زوجه بالسيف ؟ وأية حكمة أوشجاعة تلك التى وصف بها دريد بن الصمة ؟! المرأة فى الجاهلية كانت فى مرتبة العبد فى بيت السيد، وكانت فى مرتبة الشريكة فى بيت الصعلوك . قال شارحا الأصمعيات عن استهلال دريد بن الصمة قصيدته :" وقد بدأ مرثيته لأخيه بضرب من النسيب يلائم الرثاء ، وهوخلف الحبيبة وبينها ..." وفى الأغانى : " إن أم معبد التى ذكرها دريد فى شعره هذه كانت امرأته فطلقها لأنها رأته شديد الجزع على أخيه ، فعاتبته على ذلك وصغرت شأن أخيه وسبته ، فطلقها ، وقال فيها : ثم ذكر البيتين ١،٢."(٢٤)

مناسبة القصيدة : كان من خبر مقتل عبدالله بن الصمه أنه خرج هووأخوه دريد فى جماعة فأغاروا على غطفان ، فأصابوا منها إبلا عظيمة .... فاستاقوها . فلما كانوا ببعض الطريق نزل عبدالله ليريح ويستريح ويقسم المال بين أصحابه ،فنهاه دريد ، فبيناهما كذلك إذ رأوا غبرة ، وإذا فزارة تتبعهم . وقتل عبدالله بمكان يقال له اللوى ، وجرح دريد وذلك يوم اللوى من أيامهم .

اللغة : ١–٣ أرث :أخلق –بلى ، بعاقبة : بآخرة ، الردة : الرجوع . خالد : هوإما أخوه خالد بن الصمة الذى قتله بنوالحارث بن كعب ، وإما عمه خالد بن

الصمة الذى قتله بنوالحارث بن كعب ، وإما عمه خالد بن الحارث أخوالصمة بن الحارث الذى قتله بنوأحمس وهم بطن من شنوءة.

التقديم : الأبيات الثلاثة الأولى من القصيدة تحتوى على استهلال بالنسيب؛ وحسن انتقال إلى موضوع القصيدة الأصلى ؛ وهوالنصيحة التى لا تجدى فى موضوع الموت ، فلكل أجل كتاب ، والرثاء الذى يودع به دريد أخاه . أما الخاتمة فهى الفخر بالشجاعة وكأنه يقول لأخيه الراحل : سأعيش بعدك فارسا إلى أن ألحق بك وأموت مثل ميتتك فهذه سنة الحياة وهذا مصير السادة الفرسان .

المرأة عند السيد الجاهلى جارية وليست شريكة تقاسمه حياته ، ودريد بن الصمة المشهود له بالحكمة والقيادة الحربية وسيادة بنى جشم سجلنا عليه سفاهته حين ضرب زوجه بالسيف واحتج لهذا التصرف غير الحكيم . وندعوك إلى الرجوع إلى ما ذكره أبوالفرج الأصبهانى فى كتابه الأغانى عن أم معبد زوج دريد التى طلقها لأنها لامته على جزعه على موت أخيه، وسبته(٢٥) ، وقد أشار دريد إلى صحة الخبر فى الأبيات الثلاث الأولى .

إن واقعة انفصال أم معبد زوج دريد عنه بسبب مبالغته فى حزنه على أخيه حقيقة لها دلالتها على مكانة المرأة المتدنية عند دريد وأمثاله من السادة فى الجاهلية ، فليس من حقها مناقشة زوجها ولومه ومحاولة تعديل سلوكه بما ينفى عن حياته الحزن ويوجهه إلى التماس السعادة . ونستدل بهذه الحقيقة على تفسير المضمون الجاهلى . وعندنا إن استهلال القصيدة بذكر البعاد والبينونة فى الفراق متسق مع الوحدة العضوية للقصيدة موضوعا وجوا نفسيا فهى قصيدة فى الرثاء، والمصادفة فى اتساق الواقع مع البناء الفنى.

الشرح : لقد بلى حبل الوصال بيني وبين أم معبد بآخرة ولم يعد بيننا لقاء ، لقد فارقتنا فراقا بائنا لا رجعة فيه . ولم أعد حريصا على جوارها كما لم تفكر في زيارتنا قريبا أو لاحقا . يالا تمتي على حزني المفرط في فقد الرجال المتتابع إن فقد عبد الله مثل فقد خالد، وفقد الرجال هو المصيبة الفاجعة وليست المصيبة هي ما يفقده الرجال من المال .

الأبيات من ٤ إلى ٩ (نصيحة دريد وإنذاره أهله)

نصحت صحبي عند عودتنا من غزاة غطفان حين نزل أخي عبد الله ليريح ويستريح ويقسم المال بين أصحابه (٢٦) وقلت لعراض وأصحاب عارض ورهط بني السوداء ، وكلهم يشهدون تحذيري . إن غطفان سترسل وراءنا بألفي فارس مدججين بالسلاح ورؤسائهم يلبسون الدروع الفارسية الصنع المحكمة النسج ، وأمرتهم بالمسيرة من منعرج اللوى ، فعصوني ولم يستبينوا قيمة نصحي إلا عند ضحى اليوم التالي لنصحي ! فلما عصوا رأيي آثرت الوفاق ونبذت الخلاف ورأيت أن موافقة أخي مع علمي بأنها غي أحب إلي من مخالفته مع علمي بأنها رشد ؛ فأنا فرد من غزية بن جشم أرشد برشد أهلي وأغوى بغيهم .وهو تبرير كما ترى- يتسق مع الولاء للقبيلة في الجاهلية ويختلف مع معنى القيادة والمصلحة، لهذا اصطلح المسلمون على تسمية رأسهم (أمير المؤمنين) و(خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم) إلزاما لرأسهم بأن يتبع الشريعة المقررة في الكتاب والسنة في الحكم ومنعا له من أن يبرر قراره المخالف للكتاب والسنة هذا التبرير المخالف للحكمة وللمصلحة العامة .

ختم دريد نصيحته وإنذاره قومه بأعدائهم بالبيت التاسع ، واللغة فيه : تعقب الأيام: وتأتي أعقابها وبنو قارب من بني عبس قتل رجل منهم عبد الله بن الصمة ونص البيت التاسع وعيد لبني قارب جميعا أي لمحاربيه في يوم اللوى؛ وهم عبس وفزارة وأشجع الذين لحقوا بدريد وأخيه عند منعرج اللوى فقد جاء في المحيط: القرب بالتحريك : سير الليل لورد الغد.

أو أن لايكون بينك وبين الماء إلا ليلة واحدة ، أو إذا كان بينكما يومان فأول يوم تطلب فيه الماء القرب والثانى الطلق".(٢٧) فبنو قارب هم أصحاب القرب الذين أعجلوا السير فلحقوا بغزية فى منعرج اللوى قبل أن يصل إلى ديارهم .

غاضب بمعبد : غضاب بموت معبد إشارة إلى الوعيد بالثأر له. والمقصود بمعبد أخو دريد عبد الله بن الصمة . والمراجع تشير إلى أن دريد بن الصمة عنى عبد الله ولكنه اضطر . ودريد شاعر فحل لا تؤخذ عليه هذه الضرورة ، وعندنا انه ذكر أخاه عبد الله بالاسم الذى كان يناديه به إعزاز له.(٢٨)

ومعنى البيت: إن قدر لنا العيش يامن لحقتم بنا وأعجلتم الميسر من غطفان وقتلتم أخى الحبيب إلى نفسى عبد الله بن الصمة فى منعرج اللوى فثقوا أننا سنثأر له ونقتل منكم نده من رجالكم .(٢٩)

تصف الأبيات من ١٠ إلى ٢٣ مقتل عبد الله وولوه دريد عليه ، وتفسر لماذا ضجرت أم معبد زوج دريد منه وسبت عبد الله . وقيمتها فى الدرس الأدبى تتمثل فى دلالتها على الرثاء فى الجاهلية عند المشرك النهرى الذى لايؤمن بالبعث والحساب والحياة الآخرة . وهى تدل على عاطفة دريد نحو أخيه الذى مات وتدل فى نفس الوقت على جحوده بزوجه المشاركة له حياته؟!

اللغة : أردت الخيل فارسا:صرع الفرسان من غطفان فارسا منا . التنكير هنا للتعظيم . الردى :الهالك. خلى مكانه: مات . الوقاف : الجبان المجحم عن القتال – المتردد . البرم : الذى لايدخل مع القوم فى الميسر. وفى المثل (أبرما قرونا؟!) أى أثقيل ضجر وتأكل مع ذلك تمرتين تمرتين. تناوحت الرياح : تقابلت فى المهب وذلك إذا اشتد هبوبها. العضاه : ماعظم من شجر الشوك وطال واشتد شوكه ، الواحدة :عضاهة . الضريع : مر تفسيره. المعضد:عضد الشجرة : نثر ورقها لإبله. الكميش : الماضى ، العزوم ، السريع فى أموره . وأضاف السرعة إلى الإزار (الملحفة) على المجاز . رجل كميش الإزار: مشمره. لعزاء : الشدة. طلاع أنجد : ركاب لصعاب الأمور . أو هو السامى لمعالى الأمور. الأنجد : ج نجد ، وهوما ارتفع وغلظ من الأرض ، أو الطريق فى الجبل .

الربيئة: الطليعة، وهوالذى ينظر للقوم لئلا يدهمهم عدو ولا يكون الربيئة إلا على جبل أوشرف. المشيح : الجاد. المحتوف : المعوج . الملبد : الفرس شد عليه لبد السرج.

(١٥) رواية صدر البيت فى الحماسة والأغانى:(قليل التشكى للمصيبات حافظ) قال التبريزى : " المعنى:إنه لا يتألم للنوائب تنزل بساحته . وأنه يحفظ من يرمه ما يتعقب أفعاله من أحاديث الناس فى غده ." وروى أبو الفرج عن يونس أنه قال فى هذا البيت : "إنه أفضل بيت قالته العرب فى الصبر على النوائب(٣٠) ." صبا :من الصبوة ، وهى جهلة الفتوة واللهو.

(١٧) قال التبريزى : " ليس القصد إلى أنه لم يقل له كذبت فقط ، وإنما المراد أنه لم يجفه بأدون جفاء." (١٨) المصدر : السابق من الخيل . الأكناف : النواحى . الجبيب : تصغير جب ، وهوواد عند كحلة .(١٩) ينشنه : يتناوله . الصياصى : جمع صيصية ، وهى شوكة الحائك التى يسوى بها السداة واللحمة . يريد أن أخاه دعاه والرماح تتناوله ولها خشخشة ووقع كوقع صياصى الحاكة فى ثوب ينسج .

(٢٠) البو: ولد الناقة يذبح ويحشى جلده تبنا لتعطف عليه وترأمه فتدر لبنا عليه . ربعت : فزعت . الجذم : القطعة جمع جذمة

المسك : الجلد . السقب : ولد الناقة . المجلد : المسلوخ .

الشرح :

١٠- تفيض هذه الأبيات بالأسى على فقد عبد الله أخى دريد فالعائدون من غزوبنى جشم أذاعوا الخبر فى حزن وإكبار (أردت الخيل فارسا) فأدرك دريد من حزنهم وإكبارهم أنهم ينعون إليه أخاه ويترفقون من وقع الخبر عليه وقال مستنكرا متفجعا مستسلما: أعبد الله أخى هوالهالك الذى تنعونه إلى ؟!

١١- إن كان أخى عبد الله قد مات فهذه نهاية كل حى . لم يمت جبانا ، فلم نعهد عليه الإحجام عن القتال أوالتردد فيه ، بل كان جريئا يجيد تسديد الطعنات بالرمح والمبارزة بالسيف .

١٢- لم نعهد من أخلاقه فى الحرب إحجاما عن مبارزة وحرصا على الغنائم فى الوقت العصيب الذى تتناوح فيه الرياح بصوتها وغبارها وأوراق أشجار العضاه الكبيرة الرطبة وشوك الضريع المحطم ، فكل شىء يسقط مع تقابل الرياح فى المهب ؛ الفرسان والأوراق والأغصان ولا تجد الخيل والجمال إلا أرداً الطعام فى ذلك الوقت العصيب، ولكن عبد الله لم تصرفه تلك الأهوال المهلكة عن واجبه فى القتال .

١٣ - تستوى علامات المثل الأعلى للرجل السيد فى وصف دريد أخاه عبدالله مع ما رأينا من وصف تأبط شرا ووصف عروه بن الورد المثل الأعلى فى الرجال . والسر فى هذا الاتفاق إجماعهم على أن المثل الأعلى فى الرجل أن يكون فارسا غازيا ؛ فلا تعجب إذا تكررت بعض الأوصاف فى أشعارهم فهذه قيم أجمع عليها القوم فى جاهليتهم، فبعد أن نفى دريد عن عبدالله التردد والجبن فى ساحة القتال فى الظروف المبررة للانصراف عن المعركة قال إنه عزوم سريع فى قراره مشمر إزاره ، صبور فى الشدائد ، كثير الركوب لصعاب المهمات ، فهوالسامى لمعالى الأمور . وقد أدى هذه المعانى الكثيرة فى عبارات بسيطة مركزة وصفات متتابعة متساندة تشير-بدون نص-إلى أنه نحيل ، صاحب دهاء فى الحرب ، ولياقة بدنية للقتال تجعله مهيأ للقتال بأية صورة فى أى وقت .

١٤- وهوقائد محنك خاض معارك كثيرة وغزا غزوات عديدة شهد له بذلك جنوده ودلت عليه غنائمه وما يزال طليعة يطمئن إليه قومه لأنه يؤمنهم من غزومفاجئ فهومستعد دائما يشرف على الفضاء المحيط بهم من مرتفع بالجبل بزاوية معوجة وقد شد على فرسه لبد السرج .

١٥- كان عبدالله لايتألم للنوائب حين تنزل بساحته،فهوصبور،قادر على الاحتمال ، يعرف أن النصر له تكاليفه الباهظة، ولا يأتى سريعا ولكنه يأتى أخيرا ، وكان مدركا أن أفعاله الحميدة ومواقفه البطولية تسجل له وتشيد بها الأجيال من بعده .

١٦- مر عبد الله فى شبابه بجهلة الفتوة والشباب واللهووأخذ نصيبا عظيما منها ، ورده عنها ما رآه من علامات الكهولة ، فالشيب دعاه إلى أن يترفع عن جهلة الشباب ويتهيأ للرياسة .

١٧ - لقد كان مما هون من حزنى على عبد الله أننى أعطيته ما استطعت من حبى وما استحق من برى فلم يلق منى جفاء وإن قل فى أى وقت ، ولم يعهد منى بخلا بشىء أملكه ويحبه ، من وقتى أواهتمامى أوحديثى أومالى .

١٨ - نزل الموت بعبد الله وأنا أبعد الناس توقعا له ، فقد كنت واثقا بالفارس الذى يقود فرسا أصيلا مدربا سابقا غيره من الخيل يتمشى به فى جنبات أرض يألفها ويعرفها مثل الحبيب فمحتد فى الوادى عند كحلة.

١٩ - وفجأة دعتنى صيحته فطرت إليه فإذا برماح الفرسان تتعاوره، وكل طعنة فى مقتل، ولها خشخشة ووقع كوقع صياصى الحاكة فى ثوب ينسج .

٢٠ - كنت حزينا مروعا كالناقة التى ذبح ولدها وحشى جلده تبنا لتعطف عليه وترأمه وتدر عليه لبنها.

٢١- لم يغلبنى الحزن على عبد الله بعد أن أدركت أنه ميت لامحالة وإنما دفعنى الأمل إلى تخليصه من بين أيديهم، فطاعنت الفرسان حتى فروا وأصبت وعلانى نقع المعركة بسواده ، كنت أطاعنهم وأنا أفدى أخى بنفسى وأريد أن أموت ليعيش فلا أحد ينجومن الموت حاضرا أوقابلا .

٢٣- لقد هون حزنى على عبد الله أنه ميت أمامى وأننى سألحق به اليوم أوغدا.

الأبيات من ٢٤إلى ٢٦ فى الفخر .

اللغة:- اليوم:النهار فقط. فلتة: كان للعرب يوم من أيام جمادى الآخرة يغيرون بين اليوم والليل فى ساعة تسمى الفلتة ، وهى آخر ساعة من آخر يوم من أيام جمادى الآخرة ، إن كان هلال رجب قد طلع تلك الساعة من آخر جمادى الآخرة ما لم تغب الشمس . السيد: الذئب . العمرد : الطويل.شبه فرسه بالذئب .

الشظا: عظيم ملزق بالذراع ، فإذا تحرك من موضعه قيل(قد شظى الفرس) . عبل الشوى: غليظ القوائم . النسا : عرق يخرج من الورك فيستبطن الفخذين ثم يمر بالعرقوف حتى يبلغ الحافر . الشنج : المتقبض ، وهومدح له لأنه إذا تقبض نساه وشنج لم تسترخ رجلاه . القرا: الظهر . النهد : الجسيم المشرف .

الأسيل : الطويل الأملس المستوى . المقلد : موضع القلادة . صرة القوم : ضجتهم وصراخهم إعجابا . المصدق : مصدر ميمى ، أى صدق الجرى. والمصدق أيضا : الجد أوالصلابة . يعنى أنه إذا صاح به القوم ظهر منه الجد فى الجرى.

العضب : السيف القاطع ، دريه: تلألؤه وإشراقه كأنه منسوب إلى الدر بصفائه ونقائه.

الشرح :-

أختتم دريد قصيدته بالفخر بغزوه وفرسه ،فقال ٢٤- ورب غارة فلتة لحقت بها فى آخر فرصة للغزووقبل الدخول فى شهر رجب الذى يحرم فيه الغزوبفرس كالذئب فى تناسق أعضائه وإن كان يفضل الذئب بطول قامته .

٢٥- لقد اكملت فى فرسى صفات الحسن فى الخيل فذراعاه موفورتا القوة تعيناه على سرعة العدو، وقوائمه غليظة أما عرق النسا فمتقبض عنده مما يساعده على قوة الاندفاع فى العدو.

٢٦- إنه أصيل معجب يحظى بإعجاب من يشاهدونه فيصيحون به ويصرخون مستحسنين عدوه فتثيره تلك الصيحات وتدفعه إلى الجد فى الجرى. كما يكشف السفر به ليلا تلؤلؤه وإشراقه وكأنه السيف القاطع بصفائه ونقائه .

التعقيب :

١- <u>الوحدة العضوية :</u> قال ابن رشيق :" المتعارف عند أهل اللغة أن ليس للعرب مرثية أولها تشبيب إلا قصيدة دريد : (أرث جديد الحبل من أم معبد....) وأنا أقول : إنه من الواجب فى الجاهلية والإسلام إلى وقتنا هذا ومن بعده ؛ لأن الآخذ فى الرثاء يجب أن يكون مشغولا عن التشبيب بما هوفيه من الحسرة والاهتمام بالمصيبة ؛ وإنما تغزل دريد بعد قتل أخيه بسنة ، وحين أخذ ثأره ، وأدرك طلبته." (٣)

أثبتنا بما أطلعناك عليه من نصوص أن دريد بن الصمة لم يكن حكيما فى علاقته بالمرأة وهذه صفة تخصه وتعم كثيرا من سادات الجاهلية ، فالمرأة فى الجاهلية كانت فى مرتبة أقل من مرتبة الرجل عند كثير من السادة . واستهلال دريد قصيدته فى الرثاء يدل على ما نقول واقعا وبناء فنيا ونشهد أن استهلاله رثاءه بالتشبيب خدم الوحدة العضوية للقصيدة برغم غرابته وبعده عن التقاليد الفنية فى الرثاء . اشتمل الرثاء فى صورته الجاهلية عند دريد الدهرى المشرك على:

(١) إظهار اللوعة والأسى على فقد المرثى وارجع فى هذا إلىالأبيات ١،٢،٣، ٩،١٠،١٩-٢٢ .

(٢) ومدح المرثى وارجع فى هذا إلى الأبيات من١١إلى ١٨ .

(٣) والأبيات الباقية من القصيدة تحدث فيها دريد عن نصيحته وإنذاره قومه بأعدائهم ثم إنذار غطفان وأشار إلى الفلتة أى الثأر وافتخر بنفسه وبفرسه . هذا ما يثبت أن دريد بن الصمة تحدث فى موضوع واحد فى القصيدة .

وتؤكد الصور الآتية وحدة الجوالنفسى : بينونة فراق أم معبد إشارة مهدت لقوله :

تَنَادَوْا فَقَالُوا: أَرْدَتِ الخَيْلُ فَارِسًا فَقُلْتُ أَعَبْدُ اللهِ ذَلِكُمُ الرَّدِي

الشطرة الأولى أسلوب خبرى يفيد التحسر والأسى . والتنكير (فارسا) يفيد التعظيم . والاستفهام فى الشطرة الثانية من البيت يفيد التعجب والأسى ، فعبد الله هوالذى أمر بالنزول فى منعرج اللوى! والتعريف فى الردى يفيد التحسر والأسى يندر أن تجد أروع وأصدق دلالة على الحسرة على فقد الأخ من هذه الأبيات من(١٩ إلى٢٢)

٢ – الحكمة . تثير هذه القصيدة قضية الحكمة بين الجاهلية والإيمان فدريد كان سفيها مع أم معبد ، ولا نعلم من زوجه التى ضربها بالسيف أهى أم معبد أم غيرها ؟ ويتصل بهذا الموضوع قوله فى مدح أخيه :

صَبَا ما صَبَاحتَّى عَلَا الشَّيْبُ رَأْسَهُ فَلَمَّا عَلَاهُ قال للبَاطِلِ : ابْعُدِ

لقد مدحه بأنه نال من جهلة الفتوة أكبر نصيب وأطول وقت، لاشك أن هذه قيمة جاهلية . ودريد كان قائدا غير مسؤول بقوله الذى صرح به فى الأبيات (٦،٧،٨) لقد أضر أخاه وقبيلته، واحتج لهذا الضرر أنه واحد من غزية ولا وجه للاحتجاج لهذا ولالإفساده أخاه بحبه ، فمن الحب ما قتل. إن حكم القدماء على دريد بن الصمة أنه من الحكماء بعد هذه المآخذ عليه محوج إلى الاستئناف . والأمر فى هذا الاستئناف متصل بالحكمة عند المرأة الجاهلية .

إننا محتاجون إلى مناقشة القيم لإصلاح أمور حياتنا . ودرس الشعر الجاهلى أفضل فرصة لهذا ؛ فهويوفر الفرصة للمقايسة بين قيم الجاهلية وقيم الإيمان وما يترك وما يبقى . وقياس التمثيل يثرى حياتنا ويصل بين ماضينا وحاضرنا .

نطرح عليك سؤالا :هل تجد تشابها بين شخصية دريد بن الصمة وسى السيد فى ثلاثية نجيب محفوظ ؟ وهل تجد تشابها فى جناية دريد على أم معبد ؟ وجناية سى السيد على أمينة؟ وهل تعتقد أن رجلا يصير بطلا دون شريكته أم أولاده فى الواقع أوفى رواية أومسرحية ؟

المفضلية ٢٠

كيف تُسْعِدُ الزوجةُ زَوْجَهَا

قال الشَّنْفَرَى الأَزْدِى

١ – أَلَا أُمَّ عَمْرٍو أَجْمَعَتْ فاسْتَقَلَّتِ
ومـا وَدَّعَتْ جِيرَانَهَا إِذْ تَوَلَّتِ

٢ – وقَدْ سَبَقَتْنَا أُمُّ عَمْرٍو بِأَمْرِهَا
وكانت بأَعْنَاقِ المَطِيِّ أَظَلَّتِ

٣ – بِعَيْنَيَّ ما أَمْسَتْ فَبَاتَتْ فأَصْبَحَتْ
فَقَضَّتْ أُمُورًا فاسْتَقَلَّتْ فَوَلَّتِ

٤ – فَوَاكَبِدَا على أُمَيْمَةَ بَعْدَ مَـا
طَمِعْتُ ، فَهَبْهَا نِعْمَةَ العَيْشِ زَلَّتِ

٥ – فَيَا جَارَتِي وأَنْتِ غَيْرُ مُلِيمَةٍ
إِذَا ذُكِرَتْ ، ولا بِذَاتِ تَقَلَّتِ

٦ – لقد أعجبَتْنِي لاسَقُوطًا قِنَاعُهَا
إذا مامَشَتْ ، ولا بِذَاتِ تَلَفُّتِ

٧ – تَبِيتُ بُعَيْدَ النَّوْمِ تُهْدِى غَبُوقَهَا
لجَارَتِهَا إذا الهَدِيَّةُ قَلَّتِ

٨ – تَحُلُّ بِمَنْجَاةٍ مِنَ اللَّوْمِ بَيْتُهَا
إذا مـا بُيُوتٌ بالمَذَمَّةِ حُلَّتِ

٩ – كَأَنَّ لَهَا فِى الأَرْضِ نِسْيًا تَقُصُّهُ
على أُمِّهَا ، وإِنْ تُكَلِّمْكَ تَبْلَتِ

١٠- أُمَيْمَةُ لا يُخْزِى نَشَاهَا خَلِيلَهَا
إذا ذُكِرَ النِّسْوَانُ عَفَّتْ وجَلَّتِ

١١- إذا هُوَ أَمْسَى آبَ قُرَّةَ عَيْنِهِ
مَآبَ السَّعِيدِ لَمْ يَسَلْ أَيْنَ ظَلَّتِ

١٢- فَدَقَّتْ وَجَلَّتْ واسْبَكَرَّتْ وأُكْمِلَتْ
فَلَوْ جُنَّ إنْسَانٌ مِنَ الحُسْنِ جُنَّتِ

١٣- فَبِتْنَا كَأَنَّ البَيْتَ حُجِّرَ فَوْقَنَا
بِرَيْحَانَةٍ رِيحَتْ عِشَاءً وطُلَّتِ

١٤- بِرَيْحَانَةٍ مِنْ بَطْنِ حَلْيَةَ نَوَّرَتْ
لَهَا أَرَجٌ ، ماحَوْلَهَا غَيْرُ مُنْتِنِ

١٥- وَبَاضِعَةٍ حُمْرِ القِسِيِّ بَعَثْتُهَا
وَمَنْ يَغْزُ يَغْنَمْ مَرَّةً ويُشَمَّتِ

١٦- خَرَجْنَا مِنَ الوَادِى الذى بَيْنَ مِشْعَلٍ
وبَيْنَ الجَبَا ، هَيْهَاتَ أَنْشَأْتُ سُرْبَتِى

١٧- أُمَشِّي على الأرضِ التى لَنْ تَضُرَّنِى
لِأَنْكِىَ قَوْمًا أوأُصَادِفَ حُمَّتِى

١٨- أُمَشِّى على أَيْنِ الغَزَاةِ وبُعْدِهَا
يُقَرِّبُنِى مِنْهَا رَوَاحِى وغُدْوَتِى

١٩- وأُمِّ عِيَالٍ قد شَهِـــدْتُ تَقُوتُـــهُمْ
إذا أَطْعَمَتْـــهُمْ أَوْتَحَتْ وأَقَـــلَّتِ

٢٠- تَخَافُ عَلَيْنَا العَيْلَ إنْ هِيَ أَكْثَرَتْ
ونَحْـنُ جِيَاعٌ ، أَيَّ آلٍ تَأَلَّـــتِ

٢١- وما إنْ بِهَا ضِنٌّ بما في وِعَائِهَا
ولكنها من خِيفَةِ الجُوعِ أَبْقَـــتِ

٢٢- مُصَعْلِكَةٌ لايقْصُرُ السِّتْـرُ دُونَهَا
ولا تُرْتَجَى للبيتِ إنْ لَمْ تُبَيِّـــتِ

٢٣- لَهَا وَفْضَةٌ فيها ثَلاثُـونَ سَيْحَفًـا
إذا آنَسَتْ أُولَى العَدِيِّ اقْشَعَـرَّتِ

٢٤- وتَأْتِي العَدِيَّ بارِزًا نِصْفُ سَاقِهَا
تَجُـــولُ كَعَيْرِ العَانَةِ المُتَلَفِّـــتِ

٢٥- إذَا فَزِعُوا طارَتْ بأبيضَ صَـــارِمٍ
ورَامَتْ بِمَا فـى جَفْرِهَا ثُمَّ سَلَّتِ

٢٦- حُسَامٍ كَلَوْنِ المِلْحِ صَافٍ حَدِيدُهُ
جُـرَازٍ كَأَقْطَاعِ الغَدِيـرِ المُنَعَّـــتِ

٢٧- تَرَاهَا كَأَذْنَابِ الحَسِيلِ صَـــوَادِرًا
وقـــد نَهِلَـــتْ مِنَ الدِّمَاءِ وعَلَّـــتِ

٢٨- قَتَلْنَـــا قَتِيـــلاً مُهْدِيًا بمُلَبَّـــدٍ
جِمَـــارَ مِنًى وَسْطَ الحَجِيجِ المُصَوِّتِ

٢٩- جَزَيْنَا سَلَامَانَ بنَ مُفْرِجَ قَرْضَهَا
بمـــا قَدَّمَـتْ أيـــديـهِمُ وأَزَلَّـــتِ

٣٠- وهُنِّئَ بِي قَوْمٌ وما إِنْ هَنَأْتُهُـــمْ
وأصبَحْـــتُ فى قَوْمٍ ولَيْسُوا بِمُنْيَتِي

٣١- شَفَيْنَا بِعَبْدِ اللّٰهِ بَعْـــضَ غَلِيلِنَـــا
وعَوْفٍ لَـدَى المَعْدَى أَوَانَ اسْتَهَلَّتِ

٣٢- إِذَا ما أَتَتْنِي مِيتَتِي لَمْ أُبَـــالِهَـــا
ولَمْ تُـــذْرِ خَالَاتِي الدُّمُوعَ وعَمَّتِي

٣٣- ولولم أَرِمْ فى أَهْلِ بَيْتِي قَاعِـدًا
إِذَنْ جَاءَنِي بَيْنَ العَمُـــودَيْنِ حُمَّتِي

٣٤- أَلَا لَاتَعْذِلِنِي إِنْ تَشَكَّيْتُ خُلَّتِـــي
شَفَانِي بِأَعْلَى ذِي البُرَيْقَيْنِ عَدْوَتِي

٣٥- وإِنِّي لَحُلْوٌ إِنْ أُرِيدَتْ حَلَاوَتِي
ومُرٌّ إِذا نَفْسُ العَزُوفِ اسْتَمَـــرَّتِ

٣٦- أَبِيٌّ لِمَا آبَى سَرِيعٌ مَبَاءَتِـــي
إِلى كُلِّ نَفْسٍ تَنْتَحِي فى مَسَرَّتِـــي

الشاعر وقضية التمرد :

يقال الشَّنْفَرَى اسمه ويقال بل لقب له معناه عظيم الشفة ، ولا يعرف بغيره ، وهوابـن أخت تأبط شرا ، وكان أحد الثلاثة العدائين المشهورين فى الجاهلية ، وضـرب المثـل به فى العدو، فقيل :(أعدى من الشنفرى).

قال صاحب الأغانى فى مستهل ترجمة الشنفرى مصورا نسب الشاعر ومعرفا بقضية التمرد أسبابها وأهدافها وأبعادها :

" أخبرنى بخبره الحَرمى بن أبى العلاء ، قال : حدثنا أبويحيى المؤدب وأحمد بن أبى المنهال المهلبى ، عن مُؤَرِّج عن أبى هشامٍ محمد بن هشام النُّمَيْرِىّ: أن الشنفرى كان من الأواس بن الحجر بن الهُنْوين الأزد بن الغوث، أسرته بنوشَبَابة بن فهم بن عمروبن قيس بن عَيْلان ، فلم يزل فيهم حتى أسرت بنوسَلامان بن مُفَرِّج .... رجلا من فهم ، أحدَ بنى شبابه فَفَدتْه بنوشبابه بالشَّنْفَرَى . قال : فكان الشنفرى فى بنى سلامان بن مفرِّج لاتحسبه إلا أحدَهم حتى نازعتْه بنتُ الرجل الذى كان فى حِجْرِه، وكان السُّلامِىُّ اتخذه ولدا وأحسن إليه وأعطاه ،فقال لها الشنفرى : اغسلى رأسى ياأُخَيَّة وهولايشك فى أنها أخته ؛ فأنكرت أن يكون أخاها ولطمته ، فذهب مغاضبا حتى أتى الذى اشتراه من فهم ، فقال له الشنفرى : اصدقنى ممن أنا؟ فقال :أنت من الأواس بن الحجر، فقال: أما إنى لن أدعكم حتى أقتل منكم مائة بما استعبدتمونى ، ثم إنه مازال يقتلهم حتي قتل تسعة وتسعين رجلا ، وقال الشنفرى للجارية السلامية التى لطمته ، وقالت : لست بأخى :

ألا ليْتَ شِعْرِى – والتلهُّفُ ضَلَّةٌ-

بما ضَربت كفُّ الفتاةِ هجينَها؟(٣٢)

ولوعلمتْ قُعْسُوس (٣٣) أنسابَ والِدِى

ووالِدِها ظَلَّتْ تقاصَرُ دونها

أنا ابن خِيارِ الحُجْرِ بيْتاً ومَنْصِبًا

وأُمِّى ابنَةُ الأحرارِ لوتَعْرِفينَها

قال : ثم لزم الشنفرى دار فهم فكان يغير على الأزد على رجليه فيمن تبعه من فهم ، وكان يغير وحده أكثر من ذلك ، وقال الشنفرى لبنى سلامان :

وإنى لأهوَى أنَّ أُلفَّ عجَاجَتِى (٣٤)

علـــى ذى كِساء مِنْ سَلامانَ أوبُردِ(٣٥)

وأصبحَ بالعـــضْداءِ أبغى سَراتَهم

وأسلكَ خَلاًّ بين أرباع والسَّرْدِ (٣٦)."

نخرج من تعريف صاحب الأغانى بنسب الشنفرى وقضيته بأن الاستعباد – وليس الفقر – هوالدافع المحرك له على الخروج والصعلكة ؛ افتقد الحب الأُسَرى فى البيت الذى رُبِّىَ فيه حين وجد من السلامى إحسانا ولم يجد أُبُوَّةً ، واكتشف أن (قُعْسُوسَ) جارَتُه وليست أُخْتَه . افتقد المعانى الإنسانية داخل البيت بين الأب والأم والأبناء ؛ لهذا السبب نجد أن الشنفرى من أفضل من عبر عن البيت باعتباره قيمة لها قداستها واستقلالها عن العالم الخارجي بخصوصيتها المتميزة فى الحب والإيثار والسماحة والعفو.... وأدرك فى نفس الوقت أن البيت قيمة متصلة بالعالَم خارِجَه ، فالطفل فى البيت يُربَّى على الخوف من الناس باعتبارهم قُضاة، قضاؤُهم شامِلٌ لايقتصر على الإدانة بل يتعداها إلى الإشادة ، فهم يقضون باللوم كما يقضون بالتأييد ، يقضون بالعفة والحياء والكرم ،كما يقضون بالتبرج والفجور والبخل ، يقضون بالبُطولة كما يقضون بالخِسة ، وستجد من خلال الشرح أن الشنفرى من أفضل من عبر عن الرأى العام وعمل له حسابا وبين أثَرَه وقيمته الأخلاقية والتربوية .

افتقد الشنفرى جَوَّالأسرةِ وعرف فداحة الخسارة التى مُنِىَ بها ، فكان أحرصَ الناس على تكوين الأسرة وتصوير البيت أنه الجنةُ المُنَوَّرةُ ذاتُ الأريجِ.

كما أفادنا ماكتبه صاحب الأغانى عنه أننا أمام شاعر زاخر القلب بالمشاعر- فقد جعل الظلم قلبه متسعا للحب الكبير مع زوجه- على مبدأ التعويض النفسى - فاجتهد أن يكون الزوجَ السعيدَ بزوجهِ المُسْعِد لها . وأن يكون البيت حصنا آمنا يترك خارجه ما يشغله وما يكدر صفوه. واتسع قلبه لحب صديقه فى الغزووشريكه فى الشدة والرخاء والمخاطر فأعطانا صورة لحبه تأبط شرا . واتسع قلبه فى نفس الوقت لحقد دائم على مستعبديه الذين حرموه العواطف الأسرية فجعلهم يدفعون ثمن استعباده فادحا من أرواح رجالهم،وأسرف فى الثأر لحريته بما يدل على القيمة الرفيعة للحرية عنده .

صنع الشنفرى لنفسه عالما يرجوه ؛ يسوده الحب ،وينعم فيه بالجمال ويعمه الخير ووجد أن عالمه هذا محوج إلى الدفاع عن وجوده فقال:

وإنِّى لَحُلْوٌإنْ أُرِيدَتْ حَلَاوَتِي وَمُرٌّ إذا نَفْسُ العَزُوفِ اسْتَمَرَّتِ

الخلاصة إن قصيدة الشنفرى متصلة بحياته معبرة عنها وهذه أول شهادة له وأدل الأقوال على اقتداره ، نذكر بما قلناه عن قلبه الزاخر بالمشاعر ونضيف عنصر الصدق فى الشعور والصدق فى التعبير عما يشعر به ، ونضيف أن القصيدة تمثلت فيها الوحدة العضوية ، وحدة المشاعر ووحدة الجوالنفسى وقبل هذا وبعده وحدة الموضوع وهوالغزو.

١ - بدأ القصيدة بالنسيب ، وأشار - ولم يصرح-إلى خلافه مع زوجه والخلاف حول موقف الزوج الصعلوك المخالف لزوجه من الغزومما أدى إلى رحيلها مفارقة ، واشتمل هذا الجزء على الأبيات من ١ إلى ١٤ وهوأفضل ما فى القصيدة وقد اخترنا له عنوانا هو(الزوج السعيد) .

٢ - الغزوواشتمل على الأبيات من ١٥ إلى ٣٦ ، وموضوعاته متصلة هى:

أ - منهجه فى الغزو الأبيات من ١٥ إلى ١٨.
ب - صاحبه فى الغزو " " ١٩ إلى ٢٧.
ج - غـايتـه من الغزو " " ٢٨ إلى ٣١.
د - فلسفتـه فى الغزو " " ٣٢ إلى ٣٦.

فالغزوهوموضوع القصيدة الوحيد اتصل به النسيب وامتد حتى البيت الأخير.

اللغة :

ألا أم عمروأجمعت : ألا بفتـح الهمـزة والتخفيـف حـرف استفتاح للتنبيـه ، يفيـد التحقيق من جهة تركيبه مـن الهمـزة ولا . وهمـزة الاسـتفهام إذا دخلـت علـى النفـى أفادت التحقيق أى تحقيق ما بعدها نحوقوله تعالى : " ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون " يونس٦٢ . ونحوقولـه سـبحانه : "ألا إنهـم هـم السـفهاء ولكـن لا يعلمون" البقرة١٣ .

والشنفرى يؤثر الاستهلال بألا فى أكبر أعماله الشعرية .

أم عمروهى أميمة وهى جارتة ، وهى زوجـه ،وهـى نعمـة عيشـه . ذكرهـا بالكنيـة والاسم والضمير فى هذه الأبيات ما يقرب من خمسين مرة ، وهذا التكرار كنايـة عـن حبه الشديد لها .

أجمعت :عزمت أمرها استقلت : ارتحلت . تولت: أدبرت وأعرضت .
سبقتنا بأمرها : استبدت واسـتأثرت بقرارهـا بعينـى: أسـف أن رأى رحيلهـا ولا حيلة له فى منعه . وما يزال نفس التعبير مستعملا فى لغتنا المعاصرة مفيدا الأسـف مـع العجز . نعمة العيش زلت : ذهبت وانقطعت . مليمة من ألام أى أتى بما يلام عليـه. تقلـت : تبغضـت ، والتبغـض مقـابل التحبـب . الغبـوق : مـا يشـرب بالعشـى تهديـه لجارتها إيثار وإكراما .

إذا الهدية قلت : يعنى وقت الجدب ، كناية عن تأصل الإيثار والإكرام عند الزوجة .
(بمنجاة): من النجوة وهى الارتفاع والمعنى إنها أرفع وأسمى . وفى رواية أخرى (بمنحاة): من الناحية والمعنى الاختلاف فى الاتجاه . نسياتقصه: تفتش فى الأرض عن الشيء المفقود المنسى . أمها : بفتح الهمزة وكسر الميم : قصدها الذى تريده.
تبلت :تنقطع فى كلامها لاتطيله حياء . التثا : ما أخبرت به عن الرجل من حسن أوسئ .
حليلها : زوجها ، آب : رجع ، قرة عينه مجاز معناه مسعدته .
دقت : الدقة ضد العظم ،والدقيق ضد الغليظ ، والدقة: الجمال والحسن .
جلت :جل يجل جلالة وجلالا ، عظم فهوجليل وجل . والجل : ضد الدق.
فانظر كيف جعل الشنفرى دقت ضد جلت ليفيد مدح صاحبته بالجمال فى الحالتين، وهذه البراعة فى الاختيار تفيد نفى الترادف داخل النص الأدبى . اسبكرت : طالت وامتدت . حجر: أحيط ريحت : أصابتها ريح فجاءت بنسيمها.
طلت : أصابها الطلل فنشر رائحتها .
حلية : واد بتهامة أعلاه لهذيل ، وأسفله لكنانه.
الأرج: توهج الريح وتفرقها فى كل جانب . المسنت : المجدب .

الشـــــرح :

قلنا فى الفصل الثامن من كتابنا (البديع رؤية جديدة) وعنوانه (ظاهرة الغموض فى الدرس البديعى) : " إن لفظ الغموض يصلح لكى يكون مصطلحا يعم صور الغموض المختلفة فى الأدب بكل فنونه وأغراضه ودواعيه التى تشمل كل مجالات الحياة الإنسانية ..... وهوظاهرة فنية تقتضيها سياقات خاصة وتتصل بقيم إيمانية ؛ أوضحها: الصبر ، والتماس الحكمة واتخاذ الحيطة والإكبار .... والعلاقات الخاصة بين الرجل والمرأة... فالإخفاء لضرورة ولحكمةولمصلحة ، ويسهل كشفه ، وحين

يكشف فدلالته واحدة ، وهى غير محوجة إلى تأويل بعيد تتلمس له التمحلات التى يدعيها أصحاب الظاهر والباطن .(٣٦)

أثبتنا فى هذا البحث أن التلميح قسيم التصريح ، وذكرنا دواعى الغموض وصوره البلاغية العديدة ، ومثلنا له بآثار أدبية متنوعة فى أدبنا القديم والمعاصر ، فارجع إليه لأن نص الشنفرى يستغلق عليك فهمه إذا لم تستوعب هذه النظرية . وقد رأيت أن من دواعى الغموض موضوع العلاقة بين الرجل والمرأة ، وهوموضوعنا الذى ندرسه ، فلا تعجب إذا حدثناك عما يشير إليه النص كثيرا ولا تقل من أين أتيت بما تقول فالتلميح قسيم التصريح والإشارة لون متميز من البيان .

تشير الأبيات الأربعة الأولى – دون نص صريح – إلى أن زوجة الشنفرى اختلقت معه فأغضبها فقررت فى صمت الرحيل إلى أهلها ، ونفذت قرارها فأسف على فراقها الذى باغته به ، وقرر عجزه عن منعها من الرحيل مع أسفه على حدوثه . اعترف بألم الفراق ووصفه أنه مصاب فادح نزل به وأنه نعمة العيش زالت واستبدل بها البؤس والشقاء .

١ – استهل الشنفرى قصيدته بأداة الاستفتاح ألا ، وتفيد شيئين :

أ – التنبيه ، ولا ينبه إلا إلى أمر خطير . وهل هناك أمرأخطر وأقسى وأجل من فقد الحبيب والمعين والشريك فى الحياة؟! وانظر كيف يستفحل حجم هذه المصيبة مع وجود أولاد ؟!

ب – كما تفيد التحقيق،ولا تعرف أقسى من اليقين فى هذه الحالة،ولا نجد أدعى إلى الحيرة والاضطراب من تحقيق الفراق ومواجهة المستجدات المترتبة عليه.لقد ظهرت آثار هذا الاضطراب والتحير فى عبارتى الشنفرى التاليتين فحذف مرتين وكأنما صار زاهدا فى الكلام أوأصبح غير قادرعلى الإبانة ، فقال:(أجمعت فاستقلت) أراد أجمعت أمرها فاستقلت برأيها.

السبب فى فى هذا الاضطراب عنصر المباغتة فى رحيلها فلم يرد له ذكر من قبل ، لم تستأذنه ، ولم تودعه، بل لم تقم مع جيرانهما بما عودتهم عليه من التسليم والتوصية؟!

٢- لقد فوجئ الجيران كما فوجئت بالإبل وقد أظلتنا وهى راكبة راحلة؟!

٣ - يأتى التذكر عادة بعد أن يفيق الإنسان من هول الصدمة التى شلت تفكيره . وقد عبر الشنفرى عن تذكره السبب الذى جعل زوجه تقدم على الرحيل بالاشارة فقال :

بعينى ما أمْسَت فباتت فأصْبَحَت فقَضَّتْ أُمُورًا فاستقلَّتْ فوَلَّتِ

ولا نقول (على عينى) أو(بعينى) إلا ونحن فى حالة نفسية تجمع بين الأسف لما يحدث والعجز عن منعه ،ألا تفهم من هذه الإشارة أنه أغضبها فى اليوم السابق ونسى ما قال وفعل فاطمأن إلى أنها لم تغضب. ولكنها ظلت المساء الفائت والليلة المنصرمة والصباح الحالى تعد العدة للرحيل دون أن تظهر ما أسرت ، وهويرى ما تفعله ولكنه لايريد أن يصدق دلالة ماشغلت نفسها به بصفة مستمرة ، ولا يجد مبررا يدعوه لمنعها من أعمال بيتها تصل بها ساعات الليل مع النهار دون استراحة .

٤ - (واكبدا على أميمة) تعبير صادق بعد التيقن من حدوث الفراق يدل على التحسر والندبة والدليل على صدقه بساطته وسياقه الذى بيناه . لم يشر إلى سبب فقدها إلا بقوله (بعد ما طمعت) ففيم كان يطمع؟ إن ما يطمع فيه لايمكن حصره . نحن أمام إشارة غامضة لاسبيل إلى تفسيرها إلا بالسياق والاجتهاد .يمكن أن نفترض أنه طمع فى إرضائها . ويمكن أن نفترض أنه طمع فى مواصلة الغزو. فأى الفرضين أصح؟ قلنا إن السياق يرجح فرضا على آخر ، والشاعر أردف ذلك بقوله:(فهيها نعمة العيش زلت) بما يفيد أنه يرى زوجه نعمة عيشه وأنه الزوج السعيد بزوجه المسعد

لها وأن رحيلها هوزوال النعمة الحادثة بوجودها ، فهوخطأ جسيم لابد من المبادرة إلى إصلاحه وإبطال آثاره. ألا ترى أننا لسنا فى حاجة إلى فرض ثالث؟ وأن الفرضين يمكن أن يصيرا فرضا واحد ، وأننا مررنا بهذه المشكلة من قبل مع عروة بن الورد وزوجه سلمى ،وأن القضية فى حقيقتها هى اختلاف مفهوم الحب بين الزوجين فالشنفرى كعروة يرى أن إسعاد زوجه بمواصلة الغزووجلب المال الذى يوفر للزوجة الغنى والحياة الكريمة ، والزوجة ترى أن الثروة الحقيقة تتمثل فى وجود زوجها بجوارها يستمران معا المال ويربيان الأولاد ويسعدان بالأمن والحب بلاخوف . هذا هوالمعنى الذى أشار إليه ولم يصرح به وسياق القصيدة يدل عليه ويستبعد غيره .

تسألنى : ولماذا لم يصرح الشنفرى به كما فعل عروه؟ وأجيبك ، وهل حياة الشنفرى وسبب صعلكته كحياة عروة وسبب صعلكته؟ كان عروة فقيرا ولكنه كان حرا ، ولم يكن الشنفرى فقيرا ولكنه كان مستعبدا - كان أسير فداء مبعدا عن أسرته ولا اتصال بينهما . قلنا إن الشنفرى حرم من التربية الأسرية فأراد على سبيل التعويض النفسى أن يكون له بيت وأسرة ، وحرص على أن يحقق فى بيته وبين أفراد أسرته كل المعانى النبيلة التى حرم منها. ومنها فىهذا السياق الأسرار العائلية الخاصة والمشكلات التى يتعرض لها الزوجان .

يفرح الانسان إذا توصل إلى حل لغز ، ولاشك أننا نفرح بهذا الظفر الساذج ، ولكن سعادتنا أبعد من ذلك ؛ لأننا ننظر إلى ما بعده أى دلالته على توفر الوحدة العضوية ؛ وحدة الموضوع والمشاعر والأخيلة فى قصيدة الشنفرى بحيث لا يشذ لفظ أومعنى أوعاطفة أوصورة عن الموضوع الذى شمل القصيدة من مستهلها إلى خاتمتها.

تدل الأبيات الأربعة الأولى باللفظ والمعنى والصورة والعاطفة والتركيب على أننا أمام امرأة جاهلية لها الشخصية المستقلة القادرة على اتخاذ القرار بحزم ، وبسرعة ، وبدون أن تغضب زوجها أوتتحداه ، بل بجعله آسفا على حدته معها وكان لعنصر

المباغته فى قرار الفراق وتحقيقه أثره .ولابد أنها أنجزت لـه بمجهـود سـريع متواصـل كل ما يحتاج إليه منها فى غيابها مـن أمور المعيشـة . لايستطيع فى هـذه الحالـة أن يلومها وهويعرف أنهـا تغاضبـه ذاهبـة إلـى أهلهـا ، ويستطيع أن يرحـل وراءهـا لكـى يسترضيها ويعيدها إلى بيته . الخلاصة إن الشنفرى قـدم إلينـا امـرأة حازمـة ، متجـددة منجزة ، مطمعة مؤيسة، متوددة إلى زوجها. وامرأة بهـذه الصفـات يستطيع أن يصنـع معها عالمه الخاص الذى لايفسده عليه أقاربه كما حدث مع عروة بن الـورد . وعـالم الشنفرى الخاص فى بيته من نسيج الواقع يتفاعل مع المجتمع من حوله فيقضى لأفـراده بالكرم والعفة والخفر والتودد ، وليس كالعالم الذى صنعه تأبط شرا لنفسـه مـن نسـيج الخيال .

الأبيات من ٥: ١٤ فى النسيب أيضا ولكنه وقفها على جمال صاحبته خلقا وخلقا.

٥ – تذكر معنا القول المأثور المشهور :" الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لايراه إلا المرضى" ونقول – والشنفرى يلهمنا بأن نقيس عليـه قياسـا تمثيليـا:"السـعادة الزوجيـة تاج على رؤوس الأزواج لايراه إلا من فقـدوا زوجـاتهم" نذهـب بهـذا القيـاس إلـى أن الشنفرى أدرك مبلغ احتياجه لزوجه بعد أن رحلت عنه غاضبـة فخاطبهـا متأسـفا علـى فراقها مظهرا جمال خلقها وخلقها وتعددت الاشارات إليها بهذا الخطـاب كنايـة عـن مبلغ حبه لها ، فهى لا تفعل ماتلام عليه حين تذكر فى مغيبها فيشاد بمنطقها الصـائب وفعلها الدال على عقلها الراجح . وحين تكون حاضرة محدثة يشهد لها مـن يسـمعها أنها متوددة لا تقول أوتفعل أوتشير إلى ما تؤاخذ وتكرد عليه .

والشنفرى يرى من خلال هذه الأوصاف لصاحبتـه أن الحكـم الأخلاقـى يقضـى بـه الرأى العام ، وهذا هوالصواب فلا يقبل من أحـد أن يصـف نفسـه بـالكرم أوالشـجاعة أوالعفة إلا على سبيل الفخر ، ولابد من تقديم الدليـل علـى مـا يقـول ، والفخـر يقبـل ويرفض فينقض .

٦ - قدم شهادة الناس لها على حكمه لها فحكمهم موضوعي وحكمه ذاتي ، وحين تتواتر الأحكام تشهد لها فهي التي أجمع الناس على تقديمها ، قضى لها الشنفرى أنها حية محتشمة في مشيتها في الطريق تبعث على الإكبار ولا تفعل فعل أهل الريبة من إسقاط القناع والتلفت ، وهي عادة مألوفة عند النساء أشار إليها النابغة بقوله:

سَقَطَ النَّصِيفُ ولم تُرِدْ إسْقَاطَهُ فتناولَتْهُ واتَّقَتْنَا باليَدِ

قلنا إن الفترة السابقة على البعثة المحمدية لم تخل للشرك والمجون وأن المضمون الجاهلي كان يعايشه مضمون إيماني . ألا ترى أن الشنفرى يؤكد ما قلناه وأنه شاهد على عصره ؟!

٧ - أثبت الشنفرى لصاحبته صفة الكرم طبعا متأصلا ، والملاحظ أن الصعاليك جميعا يؤكدون على هذه الصفة وينبذون البخل وأصحابه . قال إنها تهدى جارتها من طعامها بالليل إذا قل الطعام وعز في الجدب ، والغبوق ما يشرب في العشي وغالبا ما يكون من الألبان ألا ترى أن الكرم ، والأحتشام ، ورضا الناس عن خلق الجار مما يتصل بالأديان بسبب متين ويبتعد عن المضمون الجاهلي .

٨ - الزوجة هي سيدة البيت عند الشنفرى لهذا نسب مدح البيت وذمة إليها ولم ينسبه للزوج . وقد قلنا في الشرح اللغوى :" بمنجاة ، من النجوة وهي الارتفاع"(٣٧)، والمعنى إنها أرفع وأسمى من أن تلام في الوقت الذى نزل اللوم ببيوت كثيرة إشارة إلى المضمون الجاهلي الذى كان يقضى بأن تدعوالمرأة في غياب زوجها من تراه للحديث ، كناية عن الزنا .

وفي رواية أخرى (بمنحاة) من الناحية (٣٨). والمعنى إن بيتها طاهر مصون عن طريق أصحاب الزنا من الجاهليين . لاتنس أن الشنفرى كان باليمن قريبا من اليهود

الزانى والزانية فى التوراة الرجم ، ولاتنس أن أنبياء العرب هود وصالح وشعيب أكدوا على شرح رسالات السماء .

٩ - وصف حياء صاحبته فى مشيتها فشبهها بمن تتبع فى الأرض شيئا فقد منها فهى تبحث عنه ، وزاد بأن الحياء يجعلها حين تحدث رجلا - تقطع حديثها ولا تسترسل فيه لكى لا تطمع فيها محدثها .

١٠- وهى ذكية وفيه لزوجها لا تذكر عنه شيئا يخزيه أويحرجه إذا سمعه أوعرفه الناس عنه ، وهى بين النسوان العفيفة الجليلة القدر بإجماعهن .

١١- وهى مسعدة زوجها تجعله إذا غاب عن بيته مشتاقا للعودة إليه لينعم فيه بما تعود عليه من السعادة ، وهومطمئن إلى أنها تنتظره لا تبرح بيتها فى غيابه .

١٢- فتلقاه مكتملة الأنوثة تهيأت لإسعاده بما حباها الله من جمال فطرى متمثل فى دقة الخصر وتجلل ما فوقه وما تحته ، وهى فارعة الطول وأشار إلى مظاهر الجمال الأنثوى الأخرى ولم يصرح ليثير خيالك فتبحث عن شعرها وتناسق ملامحها و.....و.....وأضاف الشاعر إلى جمال صاحبته جمالا سلوكيا هوشعورها بما حباها الله به من جمال فتفتن فى إبرازه لزوجها تيها وإدلالا يشبه الجنون فتسبيه بفتنتها .

١٣- صور الشنفرى أثر جمال صاحبته الفطرى والسلوكى عليه بأنه تقبلها قبولا حسنا وتقبلته كذلك فصارت رائحتها الطبيعية - وليس عطرها - أطيب عطور الدنيا لديه ، وقال إنها ريحانة قلبه ، تحيط البيت بأريجها عشاء لأن الندى بالليل أظهر لسلطانها وأدعى لتأثيرها فهى الأميرة سبت أسيرها .

١٤- شبه الشنفرى زوجه بالريحانة التى جعلت بيتهما جنة ، وتناسى التشبيه على سبيل الاستعارة التصريحية مفيدا أنها ريحانة من بطن حلية وهوواد بتهامة باليمن . وبطن حلية فى حزن أى أرضه غليظة ونبتها أطيب من نبت غيرها ريحا مما يجعل الأريج يتوهج فينفى الجدب عن كل مكان يضوع فيه .

هل أدركت من خلال هذا الشرح كيف ولماذا ربط الشنفرى الجمال بالحب بالوطن - البيت واليمن - بالوفرة والخير العميم ونفى الجدب . إنها لاشك إشارات لها دلالة على الوحدة العضوية لقصيدة الشنفرى .

تعقيب بلاغـــى

أثبتنا خلال الشرح ميل الشنفرى إلى التلميح واعتماده على الإشارات(٣٩) كما فى (طمعت) فى البيت الرابع وقلنا فى شرح هذه الجملة إن ما يطمع فيه لايمكن حصره وإنه لم يحدد شيئا . لكن هناك من الإشارات ما هوأقل غموضا كقوله فى البيت العاشر (لا يخزى نثاها حليلها)فهى كناية عن شهادة جيرانها فى حضورها وفى نفس البيت إشارة أخرى (إذا ذكر النسوان عفت وجلت) وهى كنايه عن شهادتهن لها فى غيابها ، والشهادتان متصلتان بالرأى العام فى المجتمع الحضرى الذى عاش فيه الشنفرى.

كما أشار فى البيت الثانى عشر إلى مظاهر الجمال الفطرى فى صاحبته وفسرنا ما دق وما جل ، والمعنى يفهم من غير تفسير ، والشاعر أبلغ لقولهم (التلميح أبلغ من التصريح). أما البيتان الثالث عشر والرابع عشر فيشيران إلى الرضا والسعادة وهما متصلان بالإشارة فى البيت الرابع (نعمة العيش)وهذا يفيد وحدة المشاعر والأفكار فى هذا الجزء من القصيدة .

إن التلميح والاشارة يتصلان بالايجاز ، والشاعر كان حريصا على أن يكون أسلوبه موجزا . وقد رأيت من إيجاز القصر وإيجاز الحذف فى الأبيات الأربعة الأولى أبلغ الشواهد ونذكر بما قدرناه من الحذف فى البيت الأول (أجمعت "أمرها ") و(فاستقلت "برأيها ")

وانظر إلى إيجاز القصر فى البيت الثالث وما ذكرناه عن التذكر وكيف جمع أمورا كثيرة أدرك أن زوجه تعملها بهمه من مساء اليوم السابق على رحيلها إلى صباح يوم رحيلها باستمرار وهولايريد أن يصدق أنها تعد العدة للرحيل وربط بينهما بالفاء الدالة على الترتيب والتعقيب ، إن هذا الشاهد من أبلغ الشواهد على إيجاز القصر :

بعيني ما أمست فباتت فأصبحت فقضت أمورا فاستقلت فولت

أفادت ظاهرة الغموض والايجاز الأسلوبية استمتاعا ذهنيا ونفسيا ، فالشاعر يشرك جمهوره فى البحث معه عن تقدير المحذوف ويتابعه بانتباه فى ايجازه لكى لايفوته شىء .

ويتصل بهذا الانتباه وتلك اليقظة ويساعد على إزكائهما ما لجأ إليه الشنفرى من أسلوب الالتفات وهو: ١ - انصراف المتكلم عن الإخبار إلى المخاطبة ،

٢ - وعن الخطاب إلى الإخبار، ٣ - وعن الإخبار إلى المتكلم.

فشاهد الأول قوله تعالى : (الحمد لله رب العالمين إياك نعبده وإياك نستعين).

وشاهد الثانى قوله تعالى : (حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة) .

وشاهد الثالث قوله تعالى : (والله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلىبلدميت).

بدأ الشنفرى ذكر صاحبته فى الأبيات الأربعة الأولى بالاخبار : (ألا أم عمروأجمعت - وقد سبقتنا أم عمرو بأمرها - بعينى ما أمست - فواكبدا على أميمة). ثم تحول إلى المخاطبة فى البيت الخامس :(فياجارتى وأنت غير مليمة ..) ورجع فى البيت السادس إلى الإخبار (لقد أعجبتنى) واستمر على الإخبار إلى البيت الثالث عشر فأتى بضمير المتكلم :(فبتنا كأن البيت حجر فوقنا ..)

وللالتفات وظيفة جمالية هى إثارة انتباه الجمهور لما يقال ، وهذا عينه ما سعى إليه الشاعر بألا الاستفتاحية وبالايجاز بنوعيه (القصر والحذف) وباشاراته العديدة . فهذه الوجوه البلاغية تتآلف وتتآزر فى إحداث نفس الوظيفة . وهذه علامة تضاف إلى علامات الوحدة العضوية في القصيدة .

لا يفوتنا أن ننوه إلى أن قصيدة الشنفرى موضوعها الغزو. ومن التقاليد الشعرية المسلم بها عند الفرسان التجوز فى قصائدهم بالغزو أى غزوالقلوب ، والشواهد على هذا متواترة لا يمكن حصرها ، نكتفى بشاهدين فقط هما قول الشاعر:

لـــاظِرَاهُ فيما جَنَى نـــاظِرَاهُ أوْدَعَانِـــى أَمُت بما أوْدَعَانِى

وقـــول جريـــر :

إنَّ العُيُـونَ التى فى طَرْفِهَا حَوَرٌ قَتَلْنَنَا ثُـمَّ لم يُحْيِـيـنَ قَتْلَانا

ونختم التعقيب بأن الشنفرى قدم لنا سيدة يمنيـة متحضرة مؤمنة هى المثال فى جمال الخلقه والمثال فى جمال الخلق . وقد احتفظت بأنوثة الفتاة ورشاقتها بعد أن تزوجت ، وحرص على إثبات قيامها بواجباتها كاملة نحوزوجها وسهرها على إسعاده ، وأثبت لها شخصية مستقلة وحضورا اجتماعيا . نرجوأن نعود إلى صاحبة الشنفرى الحضرية حين نعرض لفتاة أعرابية من البادية ، فالموضوع هوالجمال بين الريف والبادية وهوجدير بالمقارنة لا تصاله الوثيق بالقيم العربية .

رأيت أن عروة بن الورد سجل لزوجه حرصها على السلام الاجتماعى وسجل لها إصرارها على أن تعيش آمنة بدون غزومكتفية بما عندها من مال وقد حثته على أن يقيم معها واقترحت عليه أن يجرب عاما بدون غزووحذرته من الطريق المشؤوم الذى يسلكه وأنه خسران مبين . وقد تبين لنا أن يهود بنى النضير كانوا يوجهون عروة إلى ممارسة الإرهاب وتوزيع الحقد على كل مكان ومكين فى شبه الجزيرة . وتمثل التشجيع فى إقراضه ذهبا إذا احتاج وشراء المسروق أى ماغنمه من الغزو. واقرأ سيرة عروة بن الورد فى الأغانى وستقف بنفسك على الخدعة التى فقد بها عروة زوجه ودور بنى النضير فى تحقيقها ؟!!

وعرفت من قصيدة الشنفرى أن زوجه خاصمته وفارقته إلى أهلها وأن الخلاف بينهما سببه إقدامه على الغزووهى تستحثه على أن تعيش آمنة وأن تبعده عن المهالك لكنها كانت صاحبة حيلة فقد سهرت لكى تعد له ما يلزمه فى غيابها وأقنعته بأنها نعمة عيشه وريحانة قلبه وأنها كاملة الأوصاف ولن تصل أخرى إلى مكانتها .

وكان مقدرا لها كل ما صنعته من أجله ، ولم يسلك الشنفرى سبيل عروة فى إفشاء ما بينه وبين زوجه على الملأ .

كانت تظن أنه سيسعى وراءها لردها إلى بيته ، وأنه مستعد لتفهم وجهة نظرها .

الخلاصة إن طبيعة المرأة ووظيفتها التى أحلها خالقها سبحانه وتعالى لها جعلها داعية إلى الأمن والسلام الاجتماعى فى العصر الجاهلى .

أ - منهج الشنفرى فى الغزو: (الأبيات من ١٥ إلى ١٨)

اللغـــة

البضع ، كالمنع : القطع ، فالبا ضعة هى القاطعة ، يعنى أصحابه فى الغزو وعدد البضع من الثلاث إلى التسع .قال الفراء : لايذكر مع العشرة والعشرين إلى تسعين ولا يقال بضع ومائة ولا ألف . (المحيط : ب ض ع) حمر القسى : كناية عن غزوهم المتكرر فاحمرت قسيهم للشمس والمطر والدم . يشمت : يخيب مشعل والجبا : موضعان . أنشأت سربتى :أظهرتهم من مكان بعيد.

أمشى : أغزو راجلا أين الغزاة : تعب الغزو.

أنكى قوما : أقتلهم وأجرحهم . (نكى) لا تستعمل إلا مع العدو، ومعناها ليس إلا القتل والجرح .والشنفرى لم يصرح بالعداوة لمن يغزوهم كما فعل عروة بن الورد، لكن قول الشنفرى (أنكى قوما) يتضمن العداوة قطعا لأن أفراد المفعول به لهذا الفعل أعداء صراحة أوضمنا . حمتى : منيتى .

الشـــرح :

١٥ - ورب جماعة من صحبى الغزاة لا يزيدون عن تسعة نفر غزوت بهم غزوة عدنا منها غانمين ؛ وأخرى عدنا منها وقد خاب سعينا .

١٦ ،١٧ - خرجت بهم من الوادى الذى بين مشعل والجبا فى مجال غزوى وهوجبال سراة الحجاز إلى الحجر أخفيهم عن عين كل ريبة حتى أفاجئ من أغزوهم قبل أن يستعدوا.ونحن مدركون أننا أمام واحد من خيارين ؛ إما أن نقتل ونجرح ونغنم،وإما أن نقتل .

١٨ - نغزو راجلين منهكين يبعد مذهبنا فى الغزو طلبا للغنيمة ، لايقربنا من تحقيق هدفنا سوى تعودنا على ارتياد تلك الأماكن البعيدة فى غزواتنا السابقة فى ذهابنا إليها أوعودتنا منها فعادتنا فى الغزو أن نعود من غير الطريق الذى سلكناه فى الذهاب .

تدرك من هذه الأبيات أن الشنفرى اختلف مع زوجه وفقدها لنفس السبب الذى اختلف فيه عروة بن الورد مع زوجه وفقدها . زوج عروة احتالت عليه لكى يحجا معا وتزور أهلها ، وزوج الشنفرى سهرت تعد له ما يلزمه فى غيابها كناية عن حبها واستعدادها للعودة إذا وافقها وكف عن الثأر وأتاح لغيره أن يعيش آمنا سعيدا كما هوآمن سعيد فى بيته .

وهذه الأبيات والأبيات التالية إلى آخر القصيدة تثبت أن الشنفرى كفر بالحب وبالسلام وبالسعادة وبكل القيم النبيلة التى وصف بها صاحبته وعاش كما قال فى لاميته الشهيرة والتى نظمها بعد هذه القصيدة

طريد جنايات تياسرن لحمه عقيرته لأيهـــا حم أول

فهومطارد مطالب بثأر من أولياء تسعة وتسعين قتيلا ، وأصحاب تلك الجنايات يتنافسون فى الوصول إليه للانتقام منه ، فهومقتضى عليه ، والسؤال : من الذى يتمكن منه أولا . وليست هناك جاهلية أكثر بشاعة من قوله معترفا :

فَأَيَّمْتُ نِسْوَانًا وأَيْتَمْتُ إِلْدَةً .. وعُدْتُ كما أَبْدَأْتُ والليلُ أليلُ

وأصبح عنّى بالغُميصاء جالسا .. فريقان مسؤولٌ ، وآخَرُ يسأَلُ(٤٠)

إنه كما تراه يفخر بمعان جاهلية تناقض ماحدثنا به عن جمال الخلقة والخلق وعن البيت الذى يشكل كل قيمة إيمانية نبيلة ، لقد تحول الشنفرى إلى إنسان حسود حقود مدمر . إن عناصر فخره أنه أفقد الزوجة حليلها ، وأيتم الأبناء بفقد آبائهم ، وتجاوز غزوه جبال السراة فى الحجاز إلى سراة نجد بغارة عاد منها مسرعا والليل لما ينقض ظلامه ، وترك الناس فى نجد حين أصبحوا يسألون عن نتائج الغارة بالليل فى فزع وحزن وتعجب وهم يحصون خسائرهم فىالأرواح والأموال .

إن أبيات قصيدة الشنفرى (ألا أم عمرو) من ١٥ إلى آخرها تدل دلالة قاطعة على أنه فقد نعمة عيشه وزالت عنه لإصراره على الغزو، والإفراط فى الثأر من مستعبديه بنى سلامان بن مفرج ، لم يردعه الشهر الحرام والمكان الحرام فقال :

٢٨ - قتلنا قتيلا مُهْدِيًا بمُلَبَّدٍ جمار منى وسْط الحَجِيج المُصَوِّتِ

٢٩ - جزينا سَلَامَان بن مفرج قَرْضَها بما قدمت أيديهم وأزلت

٣١ - شفينا بعبد الله بعضَ غَلِيلِنا وعوف لدى المعدى أوان استهلت

قال صاحب الأغانى : " فلما ترعرع الشنفرى جعل يغير على الأزد مع فهم : فيقتل من أدرك منهم ، ثم قدم منى وبها حزام بن جابر ، فقيل له هذا قاتل أبيك ، فشد عليه فقتله ، ثم سبق الناس على رجليه فقال:

قتلت حِزَامًا مُهْدِيًا بمُلَبَّد ... ببطن منى وسط الحجيج المصوت " (٤١)

والنص يدل على أن قصيدتنا قالها الشنفرى فى شبابه وأنه كان يثأر لأبيه أوأخيه على خلاف فى الرواية ، وأن الشنفرى لم يرع حرمة الشهر الحرام والمكان الحرام . وقد تحدث عن الغليل ويعنى به العطش إلى القتل واعترف بقتل عبد الله وعوف من بنى سلامان بن مفرج . والمعدى : مكان العدو. وأوان استهلت : فى الوقت الذى ارتفعت فيه الأصوات للحرب .

أما اللامية فتالية لقصيدتنا وتدل على أن الشنفرى صار مطاردا ، وأنه فقد جنته وريحانته ولم يعد مقتصرا على الثأر من بنى سلامان بن مفرج وإنما صار صعلوكا خارجا يعم بغزوه كل مكان وكل مكين فى شبه الجزيرة .

وروى صاحب الأغانى ثلاثة أخبار عن مقتل الشنفرى فى ثلاثة مواطن من ترجمته(٤٢) وهى تختلف فى بعض التفاصيل ، لكنها تجتمع على أن الشنفرى أسرف فى قتل بنى سلامان بن مفرج من الأزد وقتل منهم تسعة وتسعين رجلا ، وأنهم أرصدوا له وتمكنوا منه وقتلوه ، واتبعوا معه أسلوبه فى تعذيب من قتلهم من رجالهم فسملوا عينيه ، ثم قطعوا أوصاله ، وزادوا شيئا أنهم صلبوه .

تعقيـــــب

القضية المحورية فى قصيدة الشنفرى هى الجاهلية والايمان .

ذهبنا فى كتابنا (المدخل إلى الأدب العربى ودراسته) إلى أن الأدب أدبان ورسه درسان؛ أدب إيمانى وأدب جاهلى وربطنا ذلك بولاء الأديب وتصوره لرسالة الأدب. وما يقال عن دارس الأدب مرتبط بالأديب لأن الموهبة الأدبية لها مظهران ، مظهر إبداعى ومظهر درسى ، وهما وجهان لعملة واحدة . وقصيدة الشنفرى هذه اجتمع فيها المظهران فيما يخص إنشاء الأدب ، فقد صدر فى بعضها عن اتجاه إيمانى ، ولا نعنى إيمانا واضحا برسالة سماوية محددة ، وإنما نعنى استجابة لما بلغه من الحنيفيه

دين إبراهيم واسماعيل ، واليهودية ، والمسيحية ، وما بلغه من هدايات أنبياء الله من العرب هود وصالح وشعيب عليهم السلام . لقد ذكر الله فى سياق وعيده بنى سلامان،قال:(٤٣)

" وأَبْغِي بَنِي صَعْب بن مُرٍّ بلادَهم وسوف ألاقيهم إنِ اللهُ يَسَّرَا "

وذكر العفة والحياء والإحسان إلى الجار ، واستنكر الزنا ، وأشار إلى فضائل خلقية عديدة دون تحديد حين وصف صاحبته أنها (غير مليمة) وأنها تحل بمنحاة من اللوم؛ وبيوت كثيرة غير بيتها حلت بالمذمة) فى البيت الثامن الذى يدل دلالة قاطعة على ماذهبنا إليه فى كتابنا المذكور أن الفترة الجاهلية لم تخل من إيمان ومؤمنين أشير إليهم بالهداة والمتألهين .

لكن اتجاهه الإيمانى لم ينتسب إلى شريعة من شرائع الله ، وغلبت عليه الجاهلية بعد أن هجرته صاحبته وصار صعلوكا مطاردا لابيت ولا صاحبة له وأقسم بصنمه المقدس (الأقيصر) ، قال :

" وإنِ امرأً أجار سعدَ بنَ مالِكٍ .. عَلَيَّ وأثوابِ الأُقَيْصِرِ يَعْنُفُ "(٤٤)

لقد ظن الشنفرى أنه يستطيع أن يجمع بين الجاهلية والإيمان بقوله فى البيتين الخامس والسادس والثلاثين من قصيدته:

وإنِّيَ لَحُلْوٌ إنْ أُرِيدَتْ حَلاَوَتِي ... ومُرٌّ إذا نَفْسُ العَزُوفِ اسْتَمَرَّتِ

أَبِيٌّ لما آبَىٰ سَرِيعٌ مَبَـاءَتِـي ... إلى كُلِّ نَفْسٍ تَنْتَحِي فى مَسَرَّتِي

وكان ظنه متصلا بالزوجة التى أسعدها وأسعدته ووصفها أنها ريحانة نورت ضاع أريجها وأحاطت ماحول البيت بكل أخضر يانع . فلما رحلت عنه - وهى ترجوأن تصرفه عن الثأر والغزو، وأخفقت فى حمله على ماتريد وتحققت البينونة - ترك الشنفرى الاتجاه الإيمانى وصار جاهليا صعلوكا طريدا لابيت له ولازوجة . يؤكد ما

ذهبنا إليه من أن فقد الشنفرى زوجه أم عمرو كان سببا فى نهايته المأساوية قول تأبط شرا يرثيه :

" وحتَّى رَمَاكِ الشَّيْبُ فى الرأسِ عانِسًا ... وخَيْرُكَ مَبْسُوطٌ وزَادُكَ حاضِرُ "(٤٥)

نختم هذا التعقيب بدرس بلاغى لظاهرة الحذف، ونفسر دلالاتها فى قصيدة الشنفرى.

- الحذف عند الجاحظ من اتساع العرب فى كلامهم ، فهولون من المجاز بمعنى الاتساع والابتكار فى الأساليب ، وقد وافق الجاحظ سيبويه الذى قال إن الحذف فى اللغة أكثر من أن يحصى ، ويعمد الأديب إلى الحذف اعتمادا على فهم المحذوف من القرينة العقلية أواللفظية (٤٦)
- ولا بن جنى فى كتابه الخصائص درس عن ظاهرة الحذف يعد بمثابة القانون لهذه الظاهرة يدور حول ثلاث نقاط هى :

١ - أن الحذف لا يجوز إلا إذا دل عليه دليل من اللفظ أوالحال .

٢ - لايجوز اجتماع الحذف والزيادة فى موضع واحد من الكلام ؛ فهما الإيجاز والإطناب ولا يجوز اجتماعهما فى كلام .

٣ - الحذف من الإيجاز ، وهوشائع فى الكلام العربى بأن يحذف من التركيب مالايخل بالفهم مع قرينة تعين المحذوف ؛ وصورة حذف حرف من الكلمة، وحذف كلمة من الجملة ، وحذف جملة أوجمل من الكلام .

أما الإمام عبد القاهر الجرجانى فقد فتش فى الأساليب البليغة عن الحذف وقال :"رب حذف هوقلادة الجيد ، وقاعدة التجويد . " (٤٧) وميز بين لونين من الحذف - وكان ابن جنى قد عد الحذف لونا واحدا - وهما عند عبد القاهر الجرجانى:

١- الحذف اختصارا : حيث يكون للفعل مفعول أوأكثر مقصوده إلا أنه يحذف من اللفظ لقرينة حالية أولفظية ، وحذف المبتدأ فى عدة مواضع ، وحذف الخبر ، وحذف الفعل ، وحذف جواب القسم ، وحذف الجملة ، وحذف الجمل . وهومادرسه الرمانى وابن جنى وغيرهما من اللغويين والبلاغيين .

٢- الحذف اقتصارا : ولا يدخل فى ما اشترطه ابن جنى فى الخصائص من وجود دليل على المحذوف أيا كان نوعه جملة أومفردا أوحرفا ، لأن المتكلم لم يقصده . وقد صار الاقتصار مصطلحا بلاغيا يعنى إثبات المتكلم معنى الفعل للفاعل دون أن يتعرض لذكر المفعول به أوالمفعولين،وفىهذه الحالةيكون الفعل المتعدى كاللازم(٤٨)

وبناء على النظرية المتقدمة فى درس الحذف بلاغيا نفسر ماورد منه فى قصيدة الشنفرى والحذف ظاهرة أسلوبية يقوم عليها بناء القصيدة موضوع الدرس :

١ - أجمعت (أمرها) حذف المفعول اقتصارا لإثبات معنى الفعل لصاحبته وهوقصد الشاعر . وكذلك قوله فى نفس البيت فاستقلت (بأمرها) فالشاعر لم يرد سوى إثبات تحقق العزم لصاحبته ومسلكها العملى الدال عليه .

٣ - (أمست فباتت فأصبحت) حذف الخبر فى كل واحد من هذه الأفعال الناسخة اقتصارا للدلالة على تحقق ما عزمت عليه طوال هذه الأوقات المتعاقبة . وكذلك الحذف فى (استقلت) فالتقدير حالى ، ومراد الشاعر من الحذف نفى الأمر أو الإيحاء به إثباتا لاستقلالها فى القرار .

٤ - الحذف فى (طمعت) على سبيل الاقتصار ، ولا مبرر للتقدير فكل ما يتصل بها طمع فيه ، فإثبات الطمع يكفى للدلالة بالعموم على أنه طمع فى وصالها وجمالها وعفوها عنه . دلالة أخرى للحذف فى هذا الموضع هى الكبرياء فهوطالب قد يرد طلبه!

١٠- وكذلك الأمر فى الحذف متمثلا فى الجار والمجرور بعد (عفت) و(حلت) فقد حذف اقتصارا لإثبات عموم مدح صاحبته بالعفة والجلال .

٢١- أما الحذف بعد (أبقت) فهومن الحذف اختصارا . والتقدير بالقرينة المقالية يفيد أن المحذوف (الطعام) .

٢٥- والحذف بعد (ثم سلت) للاختصار أيضا. والتقدير بالقرينة المقالية يفيد أن المحذوف (سيفها) .

هوامش (نصوص من الأدب الجاهلى المضمون)

(١) دار مضمون هذا الحوار مع العلامة محمود شاكرفى داره بمصر الجديدة خريف ١٩٩٣ ، وكنت قد أهديته بعض كتبى ودعانى وشرفت بزيارته ونلت كثيرا من كرمه وتوجيهه وكان تعقيبه على الحوار : (أنت على الجادة) جزاه الله على غيرته على العربية خير الجزاء .

(٢) نعتمد على المفضل الضبى والأصمعى من القدماء ، وعلى العالمين الجليلين أحمد محمد شاكر ، وعبد السلام محمد هارون من المحدثين فى مجال تحقيق النصوص وشرحها ، ونقرر استفادتنا من جهودهم ، ونعتذر عن ذكر كل جزئية فى الهامش ، ونضيف أننا نتناول النصوص المختارة برؤية جديدة ، وهذا التناول يحسب لنا ، أويحسب علينا.

(٣) درست هذه النصوص للطلاب فى الفصل الدراسى الثانى من العام الجامعى ٩٤ /٩٥ لطلاب قسم اللغة العربية بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية .

(٤) الهداج : مشية الشيخ ، وتهدج الصوت : تقطع فى ارتعاش. (المحيط هـ د ج)

(٥) العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق القيروانى تحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد ط ٢- السعادة بمصر ١٩٥٥ - ج ٢ ص ١٤٣.

(٦) النقا من الرمل : القطعة تنقاد محدودبة ، فهوجيل سمى الحسن لحسن شجره ، وسميت الموقعة يوم نقا الحسن . انظر المرجع السابق والصفحة .

(٧) هما (المدخل إلى الأدب العربى ودراسته) و(البديع رؤية جديدة) للمؤلف .

(٨) (مات حتف أنفه) تعبير مأثور عن الرسول عليه الصلاة والسلام ،معناه مات على فراشه دون قتال .

(٩) انظر المقالة السادسة في الجزء الثالث من كتاب الملل والنحل للإمام أبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني من صفحة ٦٤٤ إلى ٦٨٢ وبخاصة موضوعات (آراء العرب في الجاهلية) و(مؤمنوالعرب) و(معطلة العرب) و(علم الأديان) و (موحدوالعرب) ط٢ - ١٩٩٢من تحقيق أحمد فهميمحمد- دار الكتب العلمية-بيروت.)(١٠) قال صاحب لسان العرب (ح ل ل) : "وحليلة الرجل امرأته ، وهوحليلها، لأن كل و حد منهما يحل صاحبه ، وهوأمثل من قول من قال هومن تحلل أي أنه يحل لها وتحل له ، وذلك ليس باسم شرعي ، وإنما هومن قديم الأسماء والحليل والحليلة الزوجان ، قال عنترة :

وحليل غانية تركت مجدلا .. تمكوفريصته كشدق الأعلم ."

ألا ترى معي أن صاحب اللسان رفض قول من قال هومن الحلال ، وكلامه يدل على صحة ما رفضه! فحليلة امرأته وزوجته بنص كلامه وبنص بيت عنترة ، والدلالة الشرعية لا تقتصر على شريعة الاسلام وإنما تتمها شريعة الاسلام لقوله تعالى (إن هذا لفي الصحف الأولى صحف ابراهيم وموسى) فالزواج نصت عليه كل شرائع السماء وباركته وهومن قديم الأسماء .

(١١) عرضنا لدرس الرمز نظرية وتطبيقا في ملحق كتابنا (البديع رؤية جديدة) ط١٩٩٠ وعنوان الملحق (ظاهرة الغموض في الدرس البديعي) ط١٩٩٣ . ودرسه استاذنا الدكتور مصطفى ناصف في كتابه (قراءة ثانية لشعرنا القديم) ط٢-دار الأندلس ١٩٨١ ص٤١ وما بعدها .

(١٢) انظر : الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني ط دار الكتب المصرية (أخبار عروة بن الورد ونسبه) ج٣ من ص ٧٣إلى ٨٨.

(١٣،١٤،١٥،١٦) انظر الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى -الدكتور يوسف خليف ط دار المعارف بمصر سنة ١٩٨٦ فى مواطن كثيرة أخصها ص٣٢٢.

(١٧) الأغانى ٣/٧٦. (١٨)نفسه ٣/٨١-٨٢ . (١٩) نفسه ٣/٧٦-٧٧.

(٢٠) نشير إلى دراسة الدكتور حسين عطوان الجامعية (الشعراء الصعاليك فى العصر الأموى) ط -دار المعارف بمصر ١٩٧٠ وعندنا أن، هذه الدراسة ينبغى أن تضم إلى شعر الخوارج ، فالصعلكة تتنافى مع الإسلام حقيقة وشريعة ودولة واجتماعا . والصعلكة من معانيها الخروج على الجماعة .

(٢١) انظر ترجمة دريد بن الصمة فى أول الجزء العاشر من الأغانى للأصبهانى ط دار الكتب المصرية من ص ٣ إلى ص ٤٠.

(٢٢) انظر الأغانى ج ١٠ص٢٣-٢٥ تجد الأبيات ، والخطبة والرفض ومعاودة دريد خطبة الخنساء ومعاودتها الرفض وهجاء الخنساء دريد ، وهجاء دريد الخنساء . وقد قيل لها : ألا تجيبينه (على هجائه) ؟ فقالت : لا أجمع عليه أن أرده وأهجوه .

لاتنس أن الظلم معلم من معالم المضمون الجاهلى ، وأقبح الظلم أن يظلم الإنسان نفسه ويعرضها وأهله للمهالك لقوله صلى الله عليه وسلم : (كفى بالمرء إثما أن يضيع من يعول) وكان السلف يقولون لظالم نفسه وأهله : "ياعدونفسه".

ونستشهد لتأييد حكمنا بنفى الحكمة عن دريد بقوله تعالى: (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسى ما قدمت يداه . إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبدا) الكهف٥٧.

(٢٣) كتاب (المعانى الكبير فى أبيات المعانى) لابن قتيبة ط حيدر آباد ٢/٦٤٨.

(٢٤) هما العالمان الثبتان أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون ، وعليهما تلمذت أجيال ، وعليهما نعتمد ،وهما فى مكانة عالية كمكانة أبى عمروالعلاء ويونس

ابن حبيب والأصمعى والمفضل الضبى . انظر الأصمعيات تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ط ١-دار المعارف بمصر بدون تاريخ ص١١١.

(٢٥) دريد بن الصمة مرزوء فى إخوته ، وهذا يفسر حزنه الشديد على قتل أخيه عبد الله، قال صاحب الأغانى ٤/١٠ :" وكان لدريد إخوة ، وهم عبد الله الذىقتلته غطفان ، وعبد يغوث قتله بنومرة ، وقيس قتله بنوأبى بكر بن كلاب ، وخالد قتله بنوالحارث بن كعب . أمهم ريحانة بنت معديكرب الزبيدى أخت عمروبن معديكرب. كان الصمة سباها ثم تزوجها فأولدها بنيه."

وقد أدرك الرواة أهل الدراية أن خطوب دريد فى إخوته فجرت ينابيع إبداعه . قال صاحب الأغانى ٥/١٠:" قال أبوعبيدة : سمعت أبا عمروبن العلاء يقول : أحسن شعر قيل فى الصبر على النوائب قول دريد بن الصمة حيث يقول:

تقول ألا تبكى أخاك ! وقد أرى ... مكان البكا لكن بنيت على الصبر
لمقتل عبد الله والهالك الذى ... على الشرف الأعلى قتيل أبى بكر
وعبد يغوث أوخليلى خالد ... وعز مصابا حثوقبر على قبر
أبى القتل إلا آل صمة إنهم ... أبوا غيره والقدر يجرى إلى القدر
فإما ترينا ما تنزال دماؤنا ... لدى واتر يشقى بهاآخر الدهر
فإنا للحم السيف غير نكيزة ... ونلحمه حينا وليس بذى نكر
يغار علينا واترين فيشتفى ... بنا إن أصبنا ، أونغير على وتر
بذاك قسمنا الدهر شطرين قسمة ... فما ينقضى إلا ونحن على شطر."

(٢٦) ذكر صاحب الأغانى وقائع يوم اللوى ، وما كان من نصح دريد ، وما كان من عناد عبد الله ، وما كان من عبس وفزارة وأشجع ، فارجع إليها فى الجزء العاشر من ص٥ إلى ص٧ من طبعة دار الكتب .

(٢٧) القاموس المحيط (ق ر ب) ، وجاء فى لسان العرب :" قال الخليل : القارب : طالب الماء ليلا". قال ابن منظور :" وفى التهذيب :" القارب الذى يطلب الماء ." وقال الأصمعى :"ليلة القرب : ليلة السوق الشديد للإبل."

(٢٨) حسم صاحب الأغانى الخلاف بهذا الخبر (١٠/١٠) :" قال أبوعبيدة : كان لعبد الله بن الصمة ثلاثة أسماء ، وثلاث كنى : عبد الله ومعبد وخالد . ويكنى : أباذفافة ، وأبا فرعان وأبا أوفى ."

(٢٩) نفذ دريد بن الصمة تهديده بالثأر فحارب غطفان يوم الغدير ، قال أبوالفرج (١١/١٠) :" أغار دريد بن الصمة بعد مقتل أخيه عبد الله على غطفان يطالبهم بدمه فاستقراهم حيا حيا ، وقتل من بنى عبس ساعدة بن مر ، وأسر ذؤاب بن أسماء بن زيد بن قارب . أسره مرة بن عوف الجشمى . فقالت له بنوجشم : لوفاديناه ! فأبى ذلك دريد عليهم ، وقتله بأخيه عبد الله . وقتل من بنى فزارة رجلا يقال له حزام وإخوة له ، وأصاب جماعة من بنى مرة . ومن بنى ثعلبه بن سعد ومن أحياء غطفان ، وذلك فى يوم الغدير ."

(٣٠) قلنا ونقول إننا نعتمد على العالمين الثبتين أحمد محمد شاكر ، وعبد السلام محمد هارون فارجع دائما إلى تحقيقهما .

(٣١) انظر (العمدة فى محاسن وآدابه ونقده) لابن رشيق القيروانى ١٥٢/٢.

(٣٢) الهجين : اللئيم ، أوالعربى الذى أمه أمة ، يقول : ليتنى أعلم لم تضرب هذه الفتاة الفتى الذى اعتبرته وضيعا .

(٣٣) قعسوس : اسم الفتاة ، والمعنى : لوعلمت حسبى وحسب أبيها لتقاصر نسبها أمام نسبى . والأبيات الثلاثة - كما ترى - تسجل المضمون الجاهلى من حيث التفاخر بالأنساب،ويقابله المضمون الإيمانى الموجز فى قوله تعالى : (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) الحجرات ١٣.

(٣٤) ألف عجاجتى : كناية عن الغارة .

(٣٥) عمم عداوته لكل بنى سلامان وليس فقط ممن استعبدوه منهم .

(٣٦) سراتهم : أشرافهم ، والخل : الطريق ينفذ فى الرمل ، والعضداء ، والأرباع ، والسرد أسماء أماكن . انظر الأغانى ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣ ج ٢١ ص١٧٩-١٨٠ وقد أفدنا من تحقيق الأستاذين عبد الكريم إبراهيم الغرباوى ومحمود محمد غنيم .

(٣٧) النجا : ما ارتفع من الأرض كالنجوة - المحيط(ن ج و) .

(٣٨) النحو: الطريق والجهة ج أنحاء - المحيط (ن ح و).

(٣٩) ارجع إلى ملحق علم البديع رؤية جديدة بعنوان (ظاهرة الغموض فى الدرس البديعى) ط١٩٩٣ .

(٤٠) الغميصاء : اسم مكان بنجد . والجلس : اسم لبلاد نجد ، وجلس : أتى الجلس وهونجد . وقد رجعنا فيما استشهدنا به من لامية الشنفرى إلى كتاب (شاعر الصعاليك الشنفرى ولامية العرب) للدكتور عبد الحليم حفنى ط النوذجية ١٩٧٦ .

(٤١) الأغانى للأصبهانى ١٨٤/٢١ . ورواية البيت فى الأغانى مختلفة كما ترى عن رواية المفضليات بتحقيق العالمين أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون بالبيت ٢٨ من القصيدة .

(٤٢) انظر الأغانى ٢١/ من ص ١٨١ إلى ص١٨٣ ، ومن ص ١٨٤ إلى ١٨٥ ومن ص ١٩٢ إلى ١٩٤ .

(٤٣) نفسه ص ١٨١ . (٤٤) نفسه ص ١٩١ . (٤٥) نفسه ص ١٨٣ .

(٤٦) انظر كتاب (ظاهرة الحذف فى الدرس اللغوى) للأستاذ الدكتور طاهر حموده ط الدار الجامعية بالاسكندرية ١٩٨٣ ص ٩٣ وما بعدها .

(٤٧) دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجانى بتحقيق محمود شاكر ط الخانجى بمصر ١٩٨٤ ص ١٥١ .

(٤٨) انظر الفقرات أرقام من ١٥٢ ص ١٥٣ إلى ١٥٥ص١٥٥ من المصدر السابق.

المصادر والمراجع مرتبة أبجديا

وقد ميزنا المصدر عن المرجع بهذه العلامة*

أولا : القرآن الكريم .

ثانيا : أهم ما اعتمدنا عليه .

١ - أباطيل وأسمار تأليف العلامة محمود محمد شاكر ط٢-١٩٧٢-المدنى بمصر.

٢ - آراء الجاحظ البلاغية تأليف د.أحمد أحمد فشل ط ١ -الهيئة المصرية للكتاب بالاسكندرية ١٩٧٩ جـ١.

٣*- أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجانى ط الاستقامة بمصر بدون تاريخ شرح المراغى .

٤ - تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بنى أمية تأليف كارلونالينونشرته ابنته مريم نالينوط دار المعارف بمصر ١٩٥٤.

٥*- الأصمعيات اختيار أبى سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعى تحقيق الأستاذين أحمد محمدشاكر وعبد السلام هارون ط دار المعارف بمصر

٦*- الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى ط دار الكتب المصرية ،والأجزاء الأخيرة ط الهيئة المصرية العامة للكتاب بمصر .

٧ - بحوث فى اللغة تأليف عباس محمود العقاد مكتبة غريب ١٩٧٠ .

٨ - البديع رؤية جديدة للدكتور أحمد أحمد فشل ط الدار المصرية للتوزيع وملحقه (ظاهرة الغموض فى الدرس البديعى) .

٩ - البلاغة تطور وتاريخ د.شوقى ضيف ط٩-دار المعارف بمصر.

١٠*- البيان والتبيين للجاحظ تحقيق عبد السلام هارون ط الخانجى بمصر ١٩٦١.

١٢- ثورة الأدب تأليف الدكتور محمد حسين هيكل ط السياسة بمصر ١٩٣٣.
١٣- الجاحظ حياته وآثاره للدكتور محمد طه الحاجرى ط١ دار المعارف بمصر١٩٦٢.
١٤*- الحيوان للجاحظ تحقيق عبد السلام هارون ط١- مصطفى الحلبى بمصر ١٩٣٨.
١٥*- خزانة الأدب وغاية الأرب لتقى الدين أبى بكر ابن حجة الحموى ط١- المطبعة المصرية ببولاق ١٢٩١هـ .
١٦- خصام ونقد د.طه حسين ط بيروت ١٩٥٥.
١٧*- دلائل الاعجاز عبد القاهرالجرجانى تحقيق محمود شاكر ط الخانجى بمصر ١٩٨٤.
١٨- دور الكلمة فى اللغة تأليف استيفن أولمان ترجمة د.كمال بشر.دار الطباعة القومية القاهرة ١٩٦٢ .
١٩*- رسائل الجاحظ تحقيق عبد السلام هارون ط الخانجى بمصر١٩٦٤ .
٢٠- شاعر الصعاليك الشنفرى ولامية العرب تأليف د. عبد الحليم حفنى ط النموذجية ١٩٧٦.
٢١*- الشعر والشعراء لابن قتيبة تحقيق أحمد محمد شاكر ط دار المعارف بمصر ١٩٨٢.
٢٢- الشعراء الصعاليك فى العصر الأموى د.حسين عطوان دار المعارف بمصر ١٩٧٠.
٢٣- الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى د. يوسف خليف ط ٤ دار المعارف بمصر ١٩٨٦.

٢٣- الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى د. يوسف خليف ط ٤ دار المعارف بمصر ١٩٨٦.

٢٤- ظاهرة الحذف فى الدرس اللغوى تأليف د. طاهر حموده ط١ الدار الجامعية بالاسكندرية ١٩٨٣ .

٢٥ - ظهر الاسلام أحمد أمين ط١ - لجنة التأليف والترجمة بمصر ١٩٣٦ .

٢٦ - العصر الجاهلى تأليف الدكتور شوقى ضيف ط ١١دار المعارف بمصر١٩٨٦.

٢٧* - العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده لأبى على الحسن بن رشيق القيروانى الأزدى تحقيق الأستاذ محمد محيى الدين عبد الحميد ط السعادة بمصر ١٩٥٥ .

٢٨ *- فتح البارى بشرح صحيح البخارى للإمام أحمد بن على بن حجر العسقلانى ط السلفية بمصر

٢٩* - الفروق فى اللغة لأبى هلال العسكرى ط بيروت بدون تاريخ

٣٠ - فن الأدب لتوفيق الحكيم ط القاهرة ١٩٥٠

٣١* - فن الشعر لأرسطاطاليس ترجمة وشرح الدكتور عبد الرحمن بدوى ط النهضة بمصر ١٩٥٣ .

٣٢ - فى الأدب الجاهلى للدكتور طه حسين ط دار المعارف بمصر .

٣٣ - فى أوقات الفراغ للدكتور محمد حسين هيكل ط السياسة بمصر ١٩٣٠ .

٣٤ - فى الميزان الجديد د. محمد مندور ط النهضة بمصر بدون تاريخ

٣٥ - قراءة ثانية لشعرنا القديم تأليف د . مصطفى ناصف ط٢ - دار الأندلس بيروت ١٩٨١ .

٣٦* - القاموس المحيط لمجد الدين الفيروزبادى ط السعادة بمصر بدون تاريخ .

٣٧* - الكامل فى اللغة والأدب لمحمدبن يزيد المبرد مطبعة التقدم بمصر ١٣٢٤هـ.

٣٨* -الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل لأبى القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشرى ط دار الفكر بدون تاريخ .

٣٩* -لسان العرب لابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم الأنصارى ط بولاق .

٤٠ - اللغة العربية معناها ومبناها للدكتور تمام حسان .

٤١ - المتنبى رسالة فى الطريق إلى حياتنا للعلامة محمود شاكر ط الخانجى بمصر والمدنى بجدة ١٩٨٧ .

٤٢* - مجموع رسائل الجاحظ تحقيق باول كراوس ومحمد طه الحاجرى ط لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر ١٩٤٣ .

٤٣ - محنة التنوير للدكتور جابر عصفور من إصدارات الهيئة المصرية للكتاب - المواجهة ١٩٩٣

٤٤ - المدخل إلى الأدب العربى ودراسته للدكتور أحمد أحمد فشل .

٤٥ - المرايا المتجاورة للدكتور جابر عصفور ط الهيئة المصرية العامة للكتاب .

٤٦ - المستشرقون للدكتور نجيب العقيقى ط دار المعارف بمصر .

٤٧* - المستطرف من كل فن مستظرف لشهاب الدين محمد بن أحمد الإبشيهى ط مكتبة بيروت .

٤٨* - المعانى الكبير فى أبيات المعانى لابن قتيبة ط حيد آباد .

٤٩* - المفردات فى غريب القرآن لأبى القاسم الحسين بن محمد ط دار المعرفة بيروت بدون تاريخ .

٥٠* - المفضليات اختيار المفضل الضبى تحقيق وشرح العالمين أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ط دار المعارف بمصر ١٩٤٢ .

٥١ - مقالات فى النقد الأدبى تأليف ماثيوآرنولد ترجمة على جمال الدين عزت ط الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر - القاهرة ١٩٦٦ .

٥٣* - الملل والنحل لأبى الفتح محمد بن عبد الكريم الشهر ستانى تحقيق أحمد فهمى محمد ط٢ دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٢ .

٥٤ - من الوجهة النفسية فى دراسة الأدب ونقده للأستاذ محمد خلف الله أحمد .

٥٥ - نظرية الأدب تأليف أوستين وارين ورينيه ويلك ترجمة محيى الدين صبحى ط خالد الطرابيشى ١٩٧٢ .

مركز الدلتا للطباعة

٢٤ شارع الدلتا - اسبورتنج

تليفون : ٥٩٥١٩٢٣